
كتاب الهلال
سكة سفر
محمد عفيفي
سلسلة
ثقافية
شهرية

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٦٢٥٤٥٠ : سبعة خطوط

KITAB ALHILAL

العدد ٤٢٠ - ربيع الأول ١٤٠٦ - ديسمبر ١٩٨٥

No 420 December 1985

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى.

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الساخر العظيم

بقلـــم : محمــود السعدنى

محمد عفيفى هو أعظم كاتب ساخر أنجبته مصر فى العصر الحديث . ولكن محمد عفيفى ـ الأعظم والأقوى ـ ليس الأشهر بالضرورة ، وربما جاء ـ بالنسبة لشعب مصر ـ فى ذيل قائمة الساخرين ـ والسبب أن سخريته ناعمة ، وقلمه شديد الحساسية وشديد التربية أيضا ، فهو لايجرح ولايدمى ، ولا يترك أثرا فى نفس من يتعرض لسخريته . الا الأثر الذى تتركه موجة خفيفة على شاطىء ساحر وجميل . وهو أقرب الكتاب الساخرين الى مارك توين الأمريكى ، وأوسكار وايلد البريطانى ، ولذلك كانت سخريته من النوع الراقى الذى يرسم ابتسامة على الشفاه ، وليس من النوع الذى ينتزع الضحكة من الأعماق . ولو كان محمد عفيفى كتب فى بلد مثل لندن أو باريس ، لأقيمت له التماثيل فى الشوارع وبالتأكيد كان مصيره الدفن فى مقبرة العظماء على شاطىء نهر السين . فهو ساخر صاحب سخرية ناعمة فقط ، ولكنه مثقف ثقافة واسعة ، وخبير فى كل أنواع الفنون ، وسيستفيد قارىء محمد عفيفى دائما من إطلاعه الواسع على أسرار الفن التشكيلى ، وتفاصيل التاريخ الفرعونى ، والعلاقة بين أدب العرب وآداب الآخرين . أيضا لم يشتهر محمد عفيفى فى مصر وفى العالم العربى إلا فى محيط طبقة المثقفين . وهو وضع طبيعى فى مجتمع يعانى من الأمية مجتمع أعظم مدارسه الفنية هى مدرسة يوسف وهبى ! مجتمعه

لاتنطلق الضحكات المجلجلة فى جنباته إلا على أرصفة المقاهى وفى غرز الحشاشين ! ولم يكن يوسف وهبى زعيما للفن فى مصر بالقوة الجبرية او بفرمان صادر من الباب العالى فى استنبول ، ولكن يوسف وهبى وصل الى هذه القمة وتربع عليها لأنه الوحيد بين الفنانين فى زمانه الذى فهم نفسية شعبنا العربى ، وعرف خفاياها ، ووصل فى أعماقها الى قرار سحيق . ولقد كانت موهبة عزيز عيد أضخم ألف مرة من موهبة يوسف وهبى ، وكانت مواهب زكى طليمات أضخم ألف مرة من مواهب يوسف وهبى . ولكن يوسف وهبى بموهبته الضئيلة استطاع أن يهزم عزيز عيد بموهبته الكبيرة ، واستطاع ان ياكل زكى طليمات بالرغم من مواهبه الضخمة . وعاش يوسف وهبى فنانا لدى الجماهير حتى مات ، وعاش أكثر بعد الموت بينما مات عزيز عيد وزكى طليمات لحظة أن زارهما ملاك الموت ، وإن كان كل منهما يعيش داخل المعاهد الاكاديمية وفى ذاكرة المثقفين . وهذا هو الذى حدث للكاتب الساخر الكبير محمد عفيفى . عاش بعد موته عند نقاد الأدب الرفيع ، وعاشت سطوره فى ذاكرة المتذوقين ، مع انه كان أعظم من كتب الكلمة الساخرة فى عصره . ومع ذلك لم يستطع ان يصل الى سطح الهرم الاجتماعى فى تركيبة المجتمع العربى ، لم يصل الى الاغلبية ، ولم تكتشفه الاغلبية ، وهو سوء حظ محمد عفيفى ، وسوء حظ اكبر للقراء على وجه العموم . ولكن عفيفى الساخر العظيم ، كان يتحمل جزءا من هذه المسئولية . فلقد آثر محمد عفيفى المثقف أن ينزوى فى برجه العالى بعيدا عن مشكلات زمانه ومآسى أهله . وكان ينظر للحياة بعين مغمضة وعين نصف مفتوحة ! واعتمد إعتمادا كاملا على موهبته العظيمة ، وعلى سخريته الناعمة الرقيقة . ولذلك أيضا جاءت سخريته ، ناعمة كالحرير ، مع انه لو استخدمها فى المعارك لجاءت ناعمة كالثعبان ، تلدغ وتقتل ! ولكنه آثر ان يتفرج على زمانه ، وأن يلمس ولايجرح ، ويجرح ولايدمى . وموهبة محمد عفيفى فى الكتابة ، كانت أشبه

بموهبة عبد المنعم ابراهيم فى التمثيل موهبة عريضة مثل السمك البلطى ، وناعمة ورقيقة مثل حرير اليابان ، ومتعددة الألوان مثل بفط الاعلانات ورغم ذلك ، فهو اقل الساخرين الكبار حظا ، واقلهم فرصة ، واقلهم شهرة ! والسبب كما قلت من قبل ، هو عيب جمهور القراء فى العالم العربى فنحن مازلنا اسرى مدرسة افترضت منذ قيامها أن المواطن حمار ومسطول وغائب عن وعيه ! ولذلك أيضاً عاش المنفلوطى كثيرا فى وجدان الناس . عاش أيضاً يوسف وهبى لأن صوته كان أكثر الأصوات زعيقا ، وكانت حنجرته اشد الحناجر صراخا . لقد كان من رأى يوسف وهبى مثلا ، انه لايجب أن يموت الممثل على المسرح كما يموت الناس فى الحياة ، بل يجب ان يموت على المسرح مرتين وثلاث مرات ، ومن هنا ستكرر كثيرا عبارة !

(أنت ذلك الوحش الزنيم ناهش الاعراض وخارب البيوت الذي لعق بلسانه فى دم شرفى تلك الليلة الظلماء الحالكة السواد ، جزاءك لايكون الا الموت ومصيرك الفناء ، خذ ياعدو الله ، خذ ، خذ .. عليك اللعنة) ومع كل خذ طعنة خنجر ، بينما القتيل يظل يصرخ بالصوت الحيوانى حتى بعد ! سدال الستار ، بل إنه سيظل يصرخ حتى بعد الموت ! ومن هنا سيضيع محمد عفيفى ، لأنه لا يملك هذه الموهبة الجعورية نسبة للجاعورة ، لأن قلمه ناعم مثل موهبته ، وهو بذلك سيدخل الحلبة مجردا من السلاح الذى فرضه يوسف وهبى والمنفلوطى وحتى شوقى وحافظ ابراهيم والشيخ عبد العزيز البشرى ، وأصبح هذا الأسلوب الجعورى نفسه هو مزاج الناس ! والسبب الآخر هو أن محمد عفيفى الساخر ابتعد عن مزاج القارىء العربى ، واقترب من مزاج القارىء الخواجة . ولعل أعظم نموذج على فن الساخر محمد عفيفى هو كتابه سكة سفر . وهو مجموعة مقالات نشرها الساخر عفيفى عن سفريات قام بها مع أنه قليل الأسفار . اقرأ السطور التى قدمها محمد عفيفى نفسه لكتابه (قضيت سنين طويلة من حياتى اكره السفر واتحاشاه بكل

الطرق . وحتى الاسكندرية نفسها ماكنت لاسافر اليها فى الصيف
لولا إلحاح الاولاد على . ولولا مايتغبش فى خيالى من خواطر
سيفبحرية ذات نكهة بيكينية خاصة . فانا من الناحية النفسية
اشبه بالاشجار التى تحب أن تجلس طول حياتها فى مكان واحد .
عمرك شفت شجرة ماشية . ولعلنى لولا ظروف السفر الى الرزق .
لقبعت فى المنزل لا ابرحه . ولربما تناولت الطعام فى السرير كى
لا اتجشم مشقة السفر الى حجرة المائدة ـ اللهم الا اذا فضلت ان
انام فى المطبخ) وبعد . هذا هو كتاب محمد عفيفى سكة سفر .
اقدمه اليكم . ليس كاستاذ يقدم تلميذا . ولكن على طريقة مهرج
يرتدى ملابس مضحكة ويقف على باب السيرك يدق بالفوسا يدعو
الجمهور الى الدخول للفرجة على العاب السيرك وفنونه . ومهما كان
حظ محمد عفيفى فى الكتابة وفى الحياة . سيظل اكثر الساخرين
إحتراما . واعظمهم قدرا . وارفعهم مكانة وخصوصا لدى المثقفين
وسيضحك من الاعماق لله العظيم هؤلاء الذين يضحكون من
الاعماق لاوسكار وايلد ومارك توين .

سكة سفر

تضيت سنين طويلة من حياتى اكره السفر واتحاشاه بكل الطرق
وحتى الاسكندرية نفسها ماكنت لاسافر اليها فى الصيف لولا
إلحاح الاولاد على . ولولا مايتغبش اليها فى خيالى من خواطر
سيفبحرية ذات نكهة بيكينية خاصة فانا من الناحية النفسية اشبه
بالاشجار التى تحب أن تجلس طول حياتها فى مكان واحد . عمرك
شفت شجرة ماشية ؟ ولعلنى لولا ضرورة السعى الى الرزق لقبعت
فى المنزل لاابرحه . ولربما تناولت الطعام فى السرير كى لااتجشم
مشقة الى حجرة المائدة ـ اللهم الا اذا فضلت أن انام فى
المطبخ .

لاشك انها صفة من رواسب تربيتى من الطفولة . اذ استأذن
من أهلى فى المنزل لكى ألعب فى الشارع فيقولون لى بس
ماتروحش بعيد . فلعلنى عصيتهم ذات يوم ورحت بعيدا فرقعونى
علقة . أو ضللت الطريق فى ذات رحلة طفولية ومارست خفة
التشرد . أو أى حادث اخر مما يقع للعيال . هذا ان لم تكن فكرة
السفر عموما ترمز فى أعماقى الى شىء غير السفر . شىء
لاخلاقى أو لاتقليدى أو لاقانونى أو أى شىء اخر قبله لا .
فلذا ماتصادف أن عرض علىّ الاصدقاء رحلة ما فاننى ابدا
طبعا بالرفض البات . ومع الحاح استاذنهم فى مهلة للتفكير . حتى
ولو كان السفر الى الفيوم . اليها دعانى اصدقائى الحرافيش ذات
يوم واستاذنتهم فى تلك المهلة . وفى خلال مهلتى اخرجت اطلس

لكي اتعرف على موقع الفيوم بالضبط . كنت اتمنى ان اجدها بعيدة فوجدتها للاسف قركة كعب ، وجلست اقدح زناد الفكر بحثا عن حجة اخرى اتعلل بها للاعتذار عن السفر . سيارتي للاسف ـ وهم يعرفون ذلك ـ قد خرجت لتوها من الورشة وصارت كالجديدة لنج ، وبالطبع لايمكنني ان ادعي الحاجة الى ثمن البنزين . واليوم عطلة وليس ثمة عمل يربطني بالقاهرة . والعيال صحتهم بمب ومن الظلم ان الفق لاحد منهم مرضا مفاجئا . فتنهدت في استسلام وقلت اسافر ولكن بشرط . قالوا اشرط . فقلت لاامكث طول النهار بل اعود ظهرا في موعد الغداء . لماذا ؟ لان بعض الاقارب قد قالوا انهم سيحضرون ليتغدوا عندي . وليس من الذوق بالطبع ان اترك الضيوف يتغدون بدوني .

الى الفيوم ذهبنا وما احمل القعدة على شاطىء بحيرة قارون ، لكنني ساعة الغداء نهضت مستأذنا وسط عاصفة من الاحتجاج . شيء في داخلي يقول لي انني قد غامرت بالسفر يجب أن يكون سفرا قصيرا . ويجب ان اقطع متعتي مع الاصدقاء على سبيل التعويض عن تلك المغامرة . اذا لم افعل ذلك فثمة شر في الافق مستطير . وبالفورداء (وبنيتي كمان) وجدتني انطلق الى القاهرة كحمار ـ الفورد لا انا ـ يرمح الى البيت مشتاقا . وذلك لكي اكتشف بعد نحو من عشرين كيلو انه لايوجد في السيارة بنزين كاف ! عقلي الباطن عملها في ورتب من البداية طريقة يفسد بها الرحلة علىّ . لم اكن محتاجا الى أن افسدها بنفسي . فصرت ادوس البنزين بشدة حتى تاخذ السيارة سرعتها . ثم أوقف الموتور واتركها تسير بحكم الاندفاع . وهكذا طول الطريق بحيث مرت الساعات وانا مازلت في منتصف المسافة الى القاهرة . واذا بكلاكس ورائي ـ وقد اوشكت الشمس على الغروب بسيارة اخرى تضم اصدقائي الحرافيش ! قد استمتعوا بيومهم وعادوا مبسوطين . وانا كما ترى في تلك الورطة السخرية التي لاادري كيف

نجحت ازاءها في مقاومة البكاء مع الارتماء على الارض والترفيص كالعيال .

فلعل هذه الحكاية تعطيك فكرة عامة عن موقفي من السفر والرحلات . ذلك الموقف الذي عاشرني كما اسلفت معظم سنوات حياتي .

ولعلك تعجب بعد هذا من كتاب اسوقه لك بعنوان سكة سفر ، واحدثك فيه عن الاقصر واسوان والبحر الاحمر . فاذا انت عجبت فانا اشد منك عجبا . ولكنك تعرف النفس البشرية وكم هي ناقضة . اذ فوجئت ذات يوم بأنني اريد أن اسافر . فجاة ومن تلقاء نفسها زالت عني تلك النزعة الشجرية الثابتة . وحلت محلها نزعة عصفورية مناقضة تقول لي طير يا واد : ماذا حدث في نفسي لاادري ولكنه حدث . الشجرة العتيقة تحولت الى عصفور وانتهى الامر . وهكذا امكن أن اقدم لك هذا الكتاب الذي اقول لك في بدايته : فدامك سكة سفر !

ذكريات من اسوان

(١)

فى طائرة من طراز داكوتا جلست وبجانبى ص ص ج (صديقى صلاح جاهين) ، واثنان من ضمن بعثة صوت العرب الى اسوان سنة ١٩٦١ . قيل لى عن تلك الطائرة انها ليست طائرة بقدر ماهى توليفة من عدة طائرات قديمة مستهلكة ، ولكن ذلك لم يهمنى ، أنا لم اركب فى حياتى اية طائرة ، ولذلك استبعد جدا أن تكون الأقدار قليلة الذوق الى درجة أن تسقط الرجل فى اول طائرة يركبها ، والداكوتا كما قيل لى حمار شغل ، وعندها براعة فذة فى الهبوط الاضطرارى ، تهبط فى الحقل او فى الصحراء او حتى فى الترع والانهار ولا يهمها . فمن يدرى ؟ أليس من الممكن ان يسعدنى الحظ خلال رحلة العودة بحالة هبوط اضطرارى امام باب البيت ولا الحوجة لتاكسى من المطار ؟!

حمار الشغل يزمجر على أرض المطار متاهبا للحركة ، فتقدمت منى مضيفة حسناء وفى يدها صينية عليها مايشبه البستلية ، مع انه لم تبدر منى أيه حركة توحى بأننى من ذلك الصنف من الرجال الذين يتعاطون هذه الأشياء .

ـ دى دوا !

هكذا قال لى ص ص ج ، دواء خاص لرفع الروح المعنوية عند الرجل الطائر ، ولمساعدته على احتمال الضغط الجوى وقلة

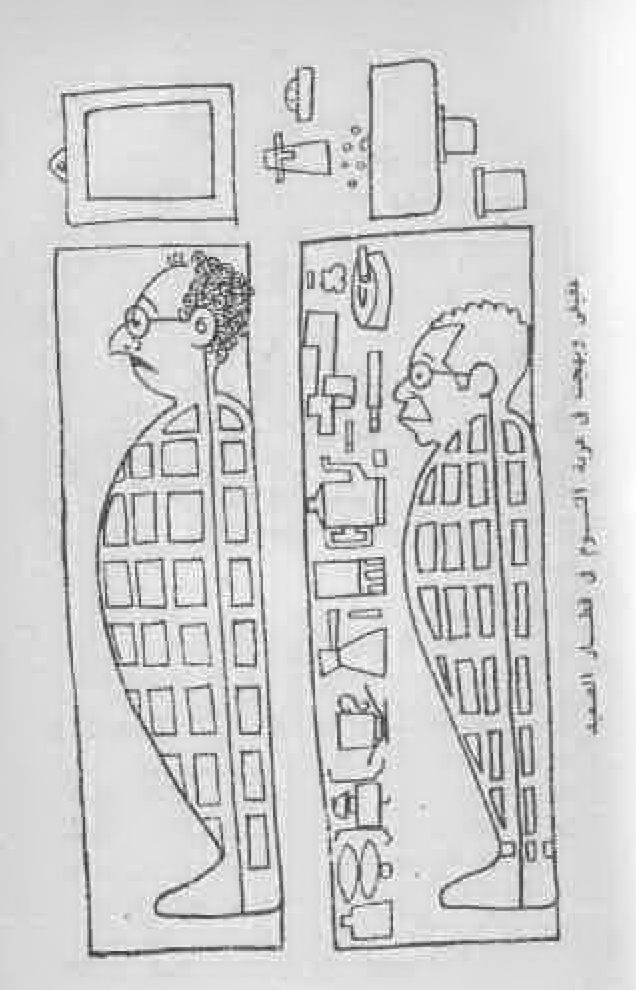


حلوة الصورة اللى رسمتها لى د ...
بس كنت عايزاها بودنين عشان النحالة



جه العلا اللي بعده وحطم كل الآثار بتاعته عشان ماالغشي العلوي زيه !!!

الاوكسجين في طبقات الجو العليا . فكدت اصدقه لولا المضيفة
التي شرحت لي الغرض من تلك البستلية ، وهو أن تدر اللعاب في
فمي وترغمني على الاكثار من البلع ، بما يمنع أذني من الانسداد
بسبب الهدير المنبعث من محار الشغل حين يشتغل



عقيلي وبهجت في عربة النوم في قطار الصعيد



الفنان عليش فى رحلة صيد

وتأكدت من صحة هذا الكلام عندما انفعل الحمار ، وعندما بدأ يبرطع على ارض المطار قبل تلك القفزة الجامحة التى طارت به فى الهواء مثبتة انه مهما قيل فهو طائرة . شيئا فشيئا يرتفع الحمار حتى صار النيل السعيد مجرد خطر صغير يتلوى تحتى ، كشريط ماء سال على ارض الحمام من حنفية تنقصها جلدة . والمزارع الخضراء شريط آخر وسط صفرة الصحراء اللامتناهية . منظر يشرح القلب حتى ولو تعرض الرجل فى سبيله للموت على اثر كبوة لذلك الحمار الطائر اذا تعثر فى سحابة او غيرها .



ـ ما اعرفش اسمه ... انا بعد ما عملت له التماثيل قالى انا ممنون

(٢)

وفى اسوان رايت منظرا اخر كان يجب ان اراه ولو تعرضت للموت ، ذلك المنظر الذى لايمكنك أن تقدره ـ مهما اتسع خيالك ـ وان لم تره رؤية العين . منظر الرجال الذين ـ وانا حبيس البيت كامراة عجوز ـ يعملون فى بناء السد العالى اربعا وعشرين ساعة

فى اليوم . رجال كالنمل يعملون ولايتوقفون عن العمل ابدا ، وسط هدير الكراكات واللوارى تحت شمس اسوان الحارقة . الديناميت يفجر جوانب الجبل الصلد ، وعشرات من الكراكات الضخمة تلتقط الصخور المحطمة وتكدسها فوق ظهور السيارات . وهى سيارات من نوع فريد فى ضخامته ، بجانبها يقف اللورى العادى كأنه لعبة من لعب الأطفال ، حمولتها كما اذكر خمسون طنا . فاذا حل الظلام اضيئت مئات المصابيح التى تحول ليل الجبل الى نهار ، وعلى ضوئها تهدر الكراكات الهائلة وهى تنهش باسنانها صخور الجبل كوحوش ماقبل التاريخ ، العمل والعمل والعمل ، والعرق والعرق والعرق ، وطولة البال التى تهد الجبال . كان يجب ان ازور اسوان لكى اهتف من اعماق روحى بارادة الانسان العامل .

(٣)

وكان يجب ان ازور اسوان لكى ارى النيل كما يجب ان يكون نيلا ، النيل الوعر نيل افريقيا الحقيقى . مئات الرءوس لمئات الصخور الجرانيتية السوداء ، عمالقة سمراء تستحم هناك منذ مليون سنة ، ومياه النهر الخالد تسيل بينها وحولها فى نعومة وجلال ، متمسحة بها فى حنان تحكى لها حكاية مامرت به من قفار ووادٍ غال .

والصمت ان كنت تعرف كيف يكون الصمت وماأظنك تعرف - هنا فى القاهرة لايمكنك ان تجلس على شاطىء النيل بغير صوت من ملايين اصوات المدينة ، ولكنك هناك فى اسوان تستطيع ان تستمع الى صوت النيل وحده . والنيل يتكلم بغير صوت ، ماأجمله ، ماأروعه ذلك الصمت فى نيل اسوان

(٤)

وكان يجب ان اذهب الى اسوان لكى اخذ فكرة عن المعيشة فى فندق الكاتاراكت . الحجرة بسبعة جنيهات فى الليلة والدفع على حساب احمد سعيد ! وسرير طرى لابد انه من ريش النعام ، وفوقه لحلفة مربعة من قماش ازرق ظننتها منديلا لزوم الرجل المترف لكن ص ص ج اكد لى انه لحاف لامنديل !

- طب اذا غطانى انا ح يغطيك انت ازاى ؟!

لكنه لم يكن بحاجة الى الغطاء لانه قرر ان ينام بالروب الثقيل بسرعة نام وتركنى وحدى لكى احاول حل مشكلة اللحاف . هل اغطى به نصفى الأعلى او نصفى الاسفل ، ام اغطى النصفين بالتناوب هذا ساعة وذاك ساعة مع ضبط جرس المنبه تحاشيا لحدوث خطأ ؟ واخيرا قررت ان اضعه فوقى متكورا تحته مثل ثعبان افريقى كبير ، وهو الحل الذى لم ينفع بسبب نعومة اللحاف وخفته . اذ اصحو من النوم وانا ارتعد ، يتضح لى ان اللحاف قد



- قومى البسى الباروكة تحسن البرنامج بتاعك على الهوا ...

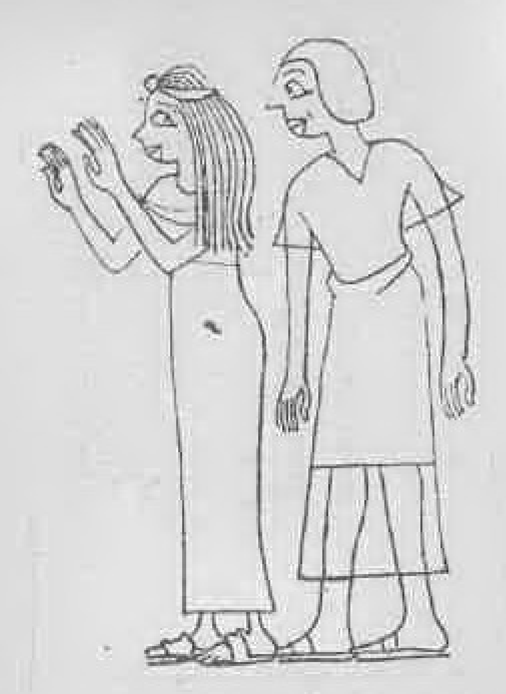
انزلق من فوقى وسقط على الأرض ، فالتقطه واضعه فوقى لكى ينزلق بعد حين من جديد . طول الليل امد يدى فى الظلام والتقطه ، ذات مرة بحثت عنه بجانب السرير فلم أجده . فاضئت النور لكى اراه ساقطا هناك فى آخر الحجرة ، الأمر الذى لم اجد له تفسيرا سوى ان اكون قد عطست وانا نائم فطيرت اللحاف !

فلو كان معى دبوس لشبكته فى صدرى مثل مريلة العيال . ذلك اللحاف الذى تحار فى فهمه العقول . لماذا يجب الرجل المترف ان يبرد فى الليل ؟ اتراه يفضل البرد على أن يتغطى بلحاف كبير عادى مثل سائر عباد الله من الطبقة الكادحة ؟

فكان يجب أن اذهب الى أسوان كما ترى لكى احمد الله على نعمة الفقر .

(٥)

على المائدة العريضة فى وليمة رسمية ، ومن على يسارى يقبل السفرجى الفخم بالصحن الكبير المحمل بالطعام . لايقبل من على يمينى ابدا وانت تعرف اصول الاتيكيت ، وعلى صحنه مع الطعام ملعقة وشوكة لزوم نقل شىء من الطعام الى صحنى الخاص . فلست ادرى لماذا يستولى على الرعب دائما فى تلك اللحظة . اشعر باننى - كعبيط دستويفسكى - سوف أقوم بالحركة الخاطئة التى تقلب ذلك الصحن الكبير على الأرض وتفضحنى فى وسط الناس . ولكننى اتجاسر واتناول بالشوكة كوساية محشوة مثلا ، أو شريحة لحم . فى نفسى شوق الى اكثر منها ولكننى اخاف ان اتهم بالجشع . وبينما آخذ هذه الكوساية او الشريحة اشعر بوجهى يتورد من الحياء وكأننى ارتكب فعلا فاضحا علنيا ، خاصة وانا



هو - ...

هى - لذ... عجيب - لاشى فيه أرى..!!

أشعر بمئات العيون مصوبة الى ترقبنى لترى كم حتة لحمة

ثم شعرت بالحسد عندما نظرت الى واحد من أعضاء البعثة .



الرجل الجميل ـ
يا سلام .. ده انا احلى منه بكثير

صديقك أبو لمعة الأصلي ذو الجلابية الدبلان المخططة . فرحة الحياة تلتمع وراء نظارته السميكة حين يقترب منه السفرجي بذلك الصحن الكبير . فيمد يديه يريد أن يتناوله منه .

ـ ايه .. هو مش كل واحد صحن !؟

ثم يتناول الملعقة والشوكة ويشرع فى تحويل محتويات الصحن الكبير الى صحنه الخاص . ترى هناك تلا كبيرا من الطعام ولكنه ليس أحسن حظا من تلال السد ـ في لحظات سريعة تراه قد تنسف



بدون تعليق

نسفا ! وتل جديد من صحن السفرجي الجديد . لايغادر ابو لمعة المائدة وقد أكل أقل من اقة خضار وكيلو لحم وحمامتين محشوتين ونصف أردب أرز . وهو يعصر الليمون على كل شيء حتى طبلة الديك . ذلك الديك الذي أشار اليه قائلا :

الكتكوت ده .. عندنا زيه فى البيت !

وهكذا نفعتنى اسوان فى اخذ فكرة عن الطريقة التى يأكل بها ابو جلابية مخططة ، لو انه حكى لى عنها بلسانه لظننته يفشر

(٦)

وفى اسوان اخذت فلتدة اخرى ، اذ رأيت ص ص ج جالسا فى الشرفة على النيل فى هيئة حزن اليم ، واضعا يده على خده شارد البصر الى النيل كأنه يتذكر صديقا غرق منذ ساعتين هناك

- مالك يادرش ؟

- بافكر فى قصيدة .

فحمدت الله على انها جاءت سليمة ، واسعدنى ان اشهد ساعة المخاض عند احد الشعراء ، واحضر مولد إحدى الرباعيات التى احبها ، تلك الرباعية التى جلس يرويها لى حين نفعه الله منها بالسلامة

كام اشتغلت يانيل فى تحت الصخور
مليون بؤونة والف مليون هاتور
يانيل انا ابن حلال ومن خلفتك
وليه صعبية عليا بس الامور
عجبى !

رباعية حلوة كما ترى ، وكان لازما ان يتصل بالقاهرة تليفونيا لكى يمليها عليهم فى مجلة صباح الخير التى يتغنى بحبها على رأيه الطير . فلما تم الاتصال جلس وشرع يلقى القصيدة فى التليفون بلهجة شاعرية حالمة .

- كام اشتغلت يانيل فى تحت الصخور .. وايه ؟

ماسمعتش ؟ ؟

وتنحنح ورفع صوته بعض الشئ .

- كام اشتغلت يانيل فى تحت الصخور ..

سمعت ؟ الحمد لله .. مليون بؤونة والف مليون هاتور .. لا موش صابونة .. بؤونة .. ماتعرفش شهر بؤونة ؟ والف مليون هاتور .. هاتور موش ساطور .. انت اطرش ؟!

فبدأ صدرى يهتز بضحك اكتمه لكى أزيد من حرج الموقف ، والمكالمة كما تعلم ثلاث دقائق لاغير . وواصل الشاعر صراخه بصوت كالطلق اعجب كيف لم يصل الى القاهرة بدون تليفون .

- يانيل انا ابن حلال ومن خلفتك .. حلال .. انا ابن حلال .. ابن حلال الله يخرب بيتك !

كان غريبا ان يتفاخر انسان بنفسه بذلك الصوت المرتفع ، خصوصا وان الطرف الآخر يبدو انه لايصدق الامر . فارتفع ضحكى بالرغم منى ولم اسكت الا بعد زغرة من الشاعر .

انا ابن حلال ومن خلفتك .. سمعت ؟ وليه صعبية على بس الامور .. صعبية .. يعنى صعبة .. صعبية عليا . عين لام يه الف .. ايوه الف انت شريكى يااخى ؟ هو انت اللى كاتب القصيدة ولا انا ؟!

وبانتهاء القصيدة رفع السماعة وجلس يغلى ، مغيظا منى بسبب اننى اضحك وليس ثمة سبب ظاهر له الضحك . ثم احس بفكاهة الموقف فشاركنى ضحكى ، واتفقنا على ان الشعر ليس مما يجوز املاؤه عبر خريطة القطر .

ولعلك بعد هذه العجالة عن رحلة اسوان تقر معى بان فى الاسفار كما يقولون سبع فوائد - او هى خمس ؟

الثنائى المرح فى الأقصر

(١)

حيث جلس بجانبى فى الغردقة (وبنيتى كمان) قال لى ص ب ع - أى صديقى بهجت عثمان :

- تيجى نسافر الأقصر ؟

سؤال بسيط سمعته بنصف اذن وانا ارقب شراب كاروهات اسود يعبر الطريق فقلت :

- مانسافرش ليه ؟ اموت فى الأقصر !

وكنا قد وصلنا الى حيث يريد بهجت أن ينزل فنزل ، وواصلت سيرى وقد نسيت كل شىء يتعلق بالموضوع . ومر يومان فاذا بتليفون بين ، وبين بهجت دارت المحاورة التالية :

هو - خلاص ياعم ... كله تمام !

انا - هو ايه اللى تمام ؟

- التذاكر جاهزة .

- تذاكر ايه !

- تذاكر السفر .

- سفر ايه ؟

- سفر الأقصر .

- هو فيه حد مسافر الأقصر ؟

- اه .

صورة النائحات وتوجد نسخة مقلدة منها فى مقبرة راموزا بعنوان النائحات

- مين ؟

- انا وانت !

واذا به قد تمسك بموافقتى السريعة على سؤاله العابر ، فاصارحك القول باننى فزعت . صحيح اننى تحولت من شجرة الى عصفور ولكن السفر مازال يخيفنى ، قلبى يخفق وقد انبسطت امامى خريطة خيالية لوادى النيل ، وقطار وهمى ينطلق بى من القاهرة الى بنى سويف والمنيا وقنا ، توطئة لأن يتوقف آخر الأمر - بفرملة حادة مفاجئة - امام تمثال ضخم لفرعون مايلسعنى بنظرة

جرانيتية قاسية . فلماذا اعرض نفسى لتلك المغامرة الرهيبة فى مجاهل التاريخ والجغرافيا ؟

لكننى استنجدت بطبيعتى العصفورية الجديدة وتوكلت على الله ، بعد مزيد من الالحاح من بهجت الذى أكد لى انه قد جرب تلك الرحلة عدة مرات فوجدها لاتزيد عن شكة الابرة . واذا كان السياح يأتون من اقاصى الارض يزوروا الاقصر ، أليس عيبا ان اعيش واموت انا المصرى (كريم العنصر) بدون ان أرى الكرنك والدير البحرى وصورة ال[illegible] مقبرة نخت ؟ وهناك فى الاقصر كثير من السياح والسائحات . ابعيد على ربك ان يضع فى طريقى هناك مليونيرة امريكية مغامرة ، تفتنها وراء نظارتى نظرة فرعونية حالمة فتظفر منها بشىء من العملة الصعبة ؟

وهكذا وجدت نفسى فى المحطة اصعد الى عربة النوم بقطار الصعيد ، ربما انها أول عربة نوم اجربها فى حياتى فاسمح لى بكلمة او اثنين عنها .

(٢)

سرير تحت وسرير فوق فى حجرة متر فى مترين ، والجدران من الفورمايكا الخضراء اللامعة وبين السرير والدولاب مسافة سمحت لى بالوقوف فيها لا لشىء الا لاننى لست سيدة فى شهرها التاسع . ورف للحقائب على ارتفاع مترين لكى اصل اليه كان لزاما على أن اصعد على السرير السفلى واتشعبط فى العلوى ممسكا الشنطة بأسنانى .

وفجأة ساورنى احساس غريب جعلنى الجأ فى محاولة تفسيره الى بهجت .

- احنا شربنا مايه فى استراحة المحطة ؟
- قهوة .
- متأكد انى ماشربتش ويسكى ؟
- طبعا .

- ولا براندى ؟
- طبعا .
- امال باتطوح ليه ؟
- لسبب بسيط جدا ، ان القطر مشى .

فارتحت وقد فهمت ، وبحثت عن شىء استقر عليه فلم اجد سوى السرير الذى تحت ، والذى جلست عليه محنيا راسى لكيلا تنحشر بين قضبان السرير الذى فوق ، وفى جلستى لا ابرح اتمايل الى الامام والخلف كاننى اركب جملا لا قطارا .

فأخرجت كتابا لاقراه فاتضح لى أن هذا أمر شبه مستحيل بسبب ذلك الاهتزاز ، اذ اثبت عينى على السطر الاول فسرعان ما تنتقل - من تلقاء نفسها - الى السطر الاخير . يعنى انه لا جلوس مستريح ولا قراءة فى هذه الحجرة التى تبدو ان المهندس قد صممها وفقا للمعنى الحرفى لحجرة النوم ، اى انها الحجرة التى لا يجوز لك فيها ان تقف او تجلس او تقرا او تمشى او تصنع اى شىء سوى ان تنام . فلو انه بهذه العقلية صمم حجرة للجلوس فاغلب الظن انه لن يزودها بكنبة مخافة ان تستعملها فى النوم ، او ترابيزة مخافة أن تستعملها فى الطعام .

فقلت لروحى أنام ، وعند ذلك فقط تبينت انه حتى النوم - الذى من أجله صنعت الحجرة يعد ايضا من رابع المستحيلات .

ضجيج عجلات القطار يصم الآذان ، والسرير يهتز بى كاننى فى مرجيحة ، وذلك الاهتزاز الذى يشتد احيانا الى الدرجة التى يخيل الى اننى فى جهاز للطرد المركزى ، ومن الاهتزاز اشعر بكبدى تنطح معدتى ومعدتى تنطح طحالى ، وبمصارينى كلها تتلوى وتوشك أن تتلعبك مثلما يتلعبك رباط الحذاء . قلبى نفسه غير موضعه عدة مرات ، مرة سمعته يدق فى جانبى الأيمن ، ومرة اخرى فى اعماق بطنى السفلى غير بعيد عن المثانة .

وحتى بدون هذا الاهتزاز كان النوم مستحيلا . فكيف انام وليس



تحت راسى مخدة ؟ نعم أن هناك شيئا فى صورة مخدة ، ولكنه أقرب الى كيس مخدة منه الى مخدة . كيس فارغ الا مما لا يمكن أن يزيد على أوقيتين من مادة قد تكون قطنا وقد لا تكون . مخدة رمزية كان لزاما علىّ لكى استخدمها أن اطويها عدة مرات مثلما اطوى منديل اليد . وحتى بعد انتهائى من طيها وجدتها لا تزيد فى الارتفاع على المنديل المذكور . فلابد انه كانت هناك ازمة قطن عندما صنعوا هذه المخدات لعربة النوم . وهو بالطبع امر غريب فى دولة محصولها الاول القطن . فلست اشك فى ان الرجل الذى تولى تنفيذ هذه العملية ينام فى هذه اللحظة على مخدة أعلى من المعتاد نوعا .

ساعة وراء ساعة وانا احاول ان انام بغير فائدة . حتى شعرت من شدة الغيظ اننى اريد ان ابكى . وهتفت فى الظلام بصوت متهدج :

- يهجت ! انا عاوز اروح !

فلم يجبنى بشىء سوى غطيط النائم فى سابع نومة . وهو ما قد يشير الى أن العيب فىّ انا لا فى عربة النوم . فين وفين لما بدأت انام . وكان ذلك فى اللحظة التى طرق الباب فيها طارق يقول اننا قد اقتربنا من الاقصر .

لذلك فانا اعرف ما سوف افعل اذا ما اضطررت الى المبيت فى القطار مرة أخرى .. سأنام فى بيتنا وأروح فى النوم . مع تكليف سابق لأهل البيت بأن ينقلونى نائما الى المحطة حيث يتعاون عدد من الشيالين على حملى الى عربة النوم وايداعى على السرير برفق . وأغلب الظن اننى .. سأكون قد اخذت على سبيل الاحتياط حقنة مورفين .

(٢)

بنزولنا من القطار انتهت مرحلة الاهتزاز الأفقى وبدأت مرحلة الاهتزاز الرأسى . فى العربة الحنطور التى نقلتنا من المحطة الى النيل . ثم فى المعدية التى عبرت بنا النهر الغربى . ثم السيارة

الريفية التى حملتنا الى الفندق وتقاضت منا ـ عبر مسافة لا يمكن ان تزيد على كيلو مترين ـ خمسة وسبعين قرشا . فسألت بهجت وانا اهتز :

ـ احنا رايحين ونتر بالاس ؟ .

ـ لا ، رايحين عبد الرسول بالاس !

فسألته عما يعنى ولكنه تلفع بالغموض ورفض أن يجيب ، تاركا اياى اكتشف الأمور شيئا فشيئا .

ـ وهناك عند الحد الفاصل بين خضرة الحقول وصفرة الجبل ـ دخلنا الفندق الصغير لصاحبه الشيخ على عبد الرسول اسمه فندق المرسم نسبة الى مرسم كلية الفنون الجميلة المقام بجانبه ، وهو مرسم يرسل اليه المتفوقون من خريجى الكلية ليقضوا فيه سنة أو اكثر كبعثة دراسية داخلية .

فسألت بهجت فى دهشة :

ـ بيعتوا المتفوقين هنا ؟!

ـ اه .

ـ غريبة دى .. اول مرة اسمع أن المتفوق عقوبته النفى

وفى حديقة الفندق جلست وانا اطلق من اعماقى زفرة ارتياح سعيدا بهذا الكرسى الذى كان اول شىء ـ منذ ليلة كاملة ـ أجلس عليه فلا يهتز تحتى . حقول القمح متبسطة امامى الى ما لانهاية شىء يشرح الصدر . وبرياح منعشة تعابثها بين الحين والحين فتتموج وتبدو لعينى اشبه ببحر اخضر كبير .

لكننى احسست بأن ارتياحى ليس خالصا ، واكتشفت السبب عندما وجدتنى ارقع نفسى بالقلم لأطرد ذبابة لا تريد أن تنطرد ذبابة ثم ذبابتان ثم عشرة ، ما أكاد أكف عن النش حتى يغطى وجهى كله بالذباب . فقلت لبهجت هامسا :

ـ يظهر أن اللوكاندة دى مش اد كده .

ـ ده موش من اللوكاندة ، افهمنى ، ده البر الغربى كله كده علشان زراعة القصب .

ـ وليه ماتزلناش فى الشرقى ؟

فقال أن البر الشرقى ليس فيه سوى الكرنك ، اما هنا فيوجد وادى الملوك والدير البحرى وما يقرب من ثمانمائة مقبرة لنبلاء الفراعنة . فأسلمت أمرى الى الله وتنهدت وانا اصفع نفسى من جديد . ثلاثة أيام كاملة وانا انش الذباب . فى الفندق انش وفى الطريق انش وفوق الجبل انش ، لم تتوقف يدى عن النش لحظة واحدة . طول الوقت اجلس فى ما يشبه مطرا من الذباب ، ويدى تروح وتجىء امام عينى كأنها مساحة عربية . فهذا هو السبب الذى من اجله اخترع بهجت الها جديدا اضافه الى الآلهة الفرعونية .. الاله نش واخوه فليت !

فلو انه كان ذبابا من النوع العادى لهان الامر ، ولكنه ذباب من نوع خاص جدا ، النوع الانتحارى الذى ترفض الواحدة منه أن تغادر وجهك الا دائخة او مقتولة . لا استبعد ابدا أن يكون الفراعنة الخبثاء قد حقنوه بعقار ما لزوم الحرب ، لكى يشغلوا العدو بالنش ويفتحوا كرشه . فاذا كانت الذبابة العادية تريد أن تستخدم وجهك كمطعم على الواقف فهذه الذبابة تريد أن تستخدمه كفندق للاقامة ، او حتى كشقة التمليك لا الايجار . فاذا انت نظرت الى وجهى وظننت أن السفر قد افادنى واننى « رادد » شوية فأعلم انك مخطىء ، انما انا وارم من كثرة ماصفعت نفسى .

اما اهل البلد فقد ألفوا الذباب بدرجة جديرة بالتهنئة حقا .. هل تصدق أننى قبل أن اخاطب الواحد منهم ، كنت انش الذباب الذى على وجهه لكى اعرف هو مين ؟ بل أن بهجت نفسه نجح فى أن يعتاد عليه بصورة لا بأس بها ابدا ، فهل تصدق أننى جلست ساعة اتحدث الى صاحب الفندق ، حتى تصادف أن نش الذباب عن وجهه فاكتشفت أننى كنت احادث بهجت ؟ .

(٤)

فى البر الغربى بالأقصر ، وبمنشة فى يدى لزوم هش الذباب الاقصرلى ، انطلقت الى الجبل لكى آخذ فكرة عن الحالة الفنية والعقائدية عند أجدادى الفراعنة .

رفقائى فى الرحلة التاريخية هم الرسام بهجت عثمان ، وبهجت آخر هو مهندس ترميم الآثار على بهجت ، وسائحة امريكية اسمها «بيتى» ، وفنان من المنفيين فى مرسم الأقصر ـ لتفوقهم الدراسى ـ هو منير اسكندر . وهذا الأخير يتمتع بشىء اتمنى طول حياتى أن اتمتع به ولا أجرؤ ، وهو تلك اللحية الكبيرة الكثيفة السوداء التى لم تحلق منذ عام كامل على الأقل . هناك فى ذلك المنفى البعيد حيث تندر مقابلة الأغراب ، وحيث تتغير مقاييس الجمال وفقا للبيئة القياسية الوعرة . لماذا يتعب الانسان نفسه بحلق لحيته ؟ فوالله ـ أقول لنفسى ـ لأسافرن انا الآخر ذات يوم لكى اقيم فى ذلك المرسم عاما ، لمجرد أن استمتع بهذه اللحية الطويلة . فبهذه اللحية لا استبعد أبدا أن يوحى الى ـ وانا اعبث فيها باصابعى فى هيئة تأمل فلسفى ـ برواية لا تقل فى قيمتها عن الحرب والسلام التى استلهمها تولستوى ذات يوم من مداعبته لحيته الخاصة . وقبل أن اغادر لحية منير اسكندر احب أن اعترف له بشىء ، بأننى شككت فى أمرها فى البداية وظننت أنها سحابة حائمة على وجهه من ذباب الأقصر ، لم استوثق من أنها لحية الا عندما نششتها بالمنشة واكتشفت أنها لا تطير .

فى الطريق الى وادى الملوك

بالسيارة سرنا فى طريق مرصوف حديثا ، كالثعبان الأسود يتلوى بين كتل من الجبال الصخرية الشاهقة ، المشققة من فعل عوامل التعرية خلال مليون عام . اذ قلت للسائحة الأمريكية أظن أن

عندكم جبالا من هذا النوع فى كولورادو . فابتسمت ولم تقل شيئا ، وهو التعليق الذى واجهت به معظم ما وجهت اليها من الكلام ، على عكس ما أسمع عن حب الأمريكيين ـ خصوصا اذا كانوا امريكيات ـ للثرثرة . فلعلها متعبة بسبب ما سمعنا انه قد وقع لها فى اليوم السابق ، اذ غامرت بالخروج وحدها للاستكشاف فتاهت فى الصحراء وكادت تصاب بضربة شمس ، وفقدت الوعى وعادت محمولة ـ عبر كيلومترين ـ على كتف رجل صعيدى طيب وفى الوقت نفسه قوى .

أمام قبر توت عنخ امون وقفت بنا السيارة ، والى جوف الأرض هبطنا حتى وصلنا الى حجرة خالية وعلى جدرانها نقوش لم تتم ، وهى حيلة ـ كما أخبرنا المهندس على بهجت ـ كثيرا ما لجأ الفراعنة اليها بقصد تضليل لصوص المقابر . هم يتركون تلك الحجرة فى بداية القبر لكى يظن اللصوص انه قبر مهجور بدليل انه لم يتم ، فينصرفوا غير عالمين ان القبر الحقيقى كائن وراء هذه الحجرة او تحتها ، وأن ثمة بابا سريا كان يمكنهم أن يهتدوا اليه لو انهم جشموا أنفسهم مشقة التفتيش . فاللصوص كما ترى قديمون جدا فى التاريخ ، طول الوقت يوجدون حيث يوجد الملوك .

من فندق عبد الرسول بالأس

هناك يرقد المرحوم توت عنخ امون ، فى جوف التابوت المصنوع من الذهب النفيس ، وهو تابوت قصير نوعا بسبب ان الراحل قد رحل وهو دون الخامسة عشرة من عمره . منذ الفى سنة وهو ينام تلك النومة ، ترى هل خطر له انه فى ذات يوم سوف يتفرغ لوظيفة واحدة هى تنشيط السياحة وتزويد البلاد بالعملة الصعبة ؟ كلا بالطبع ، فقد كان يظن أن آلهته احكم من ذلك ، وانهم سيكفلون له سعادة أبدية فى قبره الملكى وسط نفائس الكنوز التى دفنت معه فى ذلك القبر .

(٥)

من قبر توت عنخ امون خرجنا الى النور والذباب ، مع تسجيل اعترافي بالجميل للسيدة الامريكية التى تصاحبنا ، والتى نجحت فى تقسيم الذباب بيني وبينها، بشرتها الأمريكية فيما يبدو قد طابت لذلك الذباب اللعين اكثر من بشرتي . اذ سرنا فى الشمس الحارقة ورأيت السيدة ترفع جريدة تحمى بها رأسها فقلت لها :

ـ تعبتى ؟

فقالت نو ، ولا ادرى لماذا غاظنى قولها . فلعله امل يتلاعب فى عقلى الباطن ويمنينى بأن تدوخ فأحملها كما حملها الرجل الصعيدى امس . حقا ان عمرها لايمكن ان يقل عن أربعين سنة ، ولكننى بالطبع لا ارمى الى شيء سوى ان اقدم لها خدمة سياحية ارفع بها ـ عن طريق رفع السيدة ـ راس بلدى . وحقا ان الرجل الصعيدى قد تولى هذه العملية قبلى . لكنه رجل عامل فقير ، ربما ظنت السيدة انه ما قام بهذه الخدمة الا طمعا فى البقشيش . اما اذا قام بالمهمة رجل مثقف مثلى فهذا شيء آخر ، شيء يدل على الشهامة المتفشية فى الشعب المصرى باختلاف طبقاته ، من عمال الى فلاحين الى مثقفين .

ثم ان السيدة وان كانت فى الاربعين الا انها بدت وسط سائر السياح الموجودين فى المنطقة أشبه بمراهقة صغيرة ! فلست ادرى ما السبب فى أن تسعين فى المائة من السياح شيوخ وعواجيز قد وهن العظم منهم ومنهن ، لا استبعد ابدا أن بعضهم ما حضر من بلاده الا لكى يسترجع مشاهد التاريخ التى حضرها ذات يوم فى صباه على الطبيعة !! .

لماذا لا يقبل على السياحة الا العواجيز ؟ سؤال اجاب عنه المهندس على بهجت بأن هذا شيء طبيعى جدا ، اذ ان السائح الذى يحلم طول عمره بزيارة ارض الفراعنة ، والذى يدخر كل عام مبلغا من المال لكى يحقق به هذا الحلم ، ليس غريبا أنه ـ على بال

مايحوش المبلغ كله ـ يكون قد جاوز السبعين ! منطق معقول بالنسبة للسائح الفقير ، وهو مايثير سؤالا آخر هو اين السائح الغنى ؟ .

ـ متأكدة انك ما تعبتيش ؟ .

فقالت يس ، وتنهدت انا فى صمت حيث واصلنا سيرنا الى مدفنا الثانى وهو مقبرة الملك سيتى الأول . وهناك وقفنا ساعة نتأمل النقوش البارزة التى تغطى كل ملليمتر من الجدران الشاهقة ، جدران المقبرة العجيبة المحفورة فى الصخر فى جوف الجبل . والسقف هو الآخر تحفة من تحف الفن ، بالرسوم التى تمثل كلا من سماء الدنيا وسماء الآخرة ، بما فيهما من نجوم وكواكب وابراج فى هيئة حيوانات . فانتازيا من الالوان لاشك انها كانت كفيلة بأن ترسل حمرة الخجل الى وجه مايكل انجلو نفسه .

(٦)

فقلت لرفقائى وانا مذهول من تلك الروعة الفنية ، أليس من الغريب أن يبلغ الانسان الفرعونى تلك الذروة من فنون الرسم النحت والمعمار ، وفى الوقت نفسه يدين بكل تلك الخزعبلات الميتافيزيقية التى نعرفها عنه ؟ .. فوافقنى بهجت الاول وعارضنى بهجت الثانى ، قائلا لى ـ فى تحيز طبيعى للفراعنة الذين يدفعون فلسفته ـ ان هذا الذى اسميه خزعبلات كان بدوره نصرا كبيرا للفكر الفرعونى الذى امكنه فى فجر العقل البشرى ان يبتدع هذا النسيج المعقد من التصورات عن الآلهة وعن خلق الكون وعن الروح وما يحدث لها بعد أن يموت صاحبها . فاعترفت له بأن فى كلامه كثيرا من الصدق ، الا انه ينسى بالطبع أن هذا النسيج العقائدى ليس من ابتداع هؤلاء الفراعنة اصحاب هذه الآثار ، انما هو مجرد تنويع على اللحن العقائدى للعصر الطوطمى الذى اندثر دون أن يترك من آثاره شيئا . فقبل الفراعنة الذين عثرنا على

اثارها كان يعيش على ضفاف النيل انسان بدائى اخر يقدس الحيوانات ويؤلهها ويسترضيها بالقرابين . شانه شأن الانسان البدائى الذى على ضفاف الفرات . والذى مازال يعيش حتى يومنا هذا فى استراليا وافريقيا وامريكا فى شكل مجتمعات متخلفة . من هذا الانسان البدائى انبثق الانسان الآخر الفرعونى ، الذى صنع المعجزة وحقق هذه الطفرة الفذة فى مجالات الفن والعلم . فلماذا عجز هذا الانسان عن تحقيق طفرة جذرية مماثلة فى مجال الفكر والعقيدة ، ولماذا احتفظ بنفس العقلية الطوطمية ممثلة فى آلهته من الثعالب والبقر والصقور والثعابين ؟ .

(٧)

ومن مقبرة سيتى خرجنا قاصدين الى الدير البحرى ، والدير البحرى ان كنت لاتعلم من مخلفات السيدة حتشبسوت . وفى هذا المعبد ترى مجموعة من الجدران الشاهقة التى يبلغ عرضها مئات من الأمتار ، وعليها من تحت الى فوق رسوم ونقوش تحكى القصة العجيبة التى لفقتها المرحومة لكى تنتزع العرش من تحتمس الثالث . وهى قصة العلاقة بين الاله امون وبين السيدة والدتها المسماة بأحمس (وهو اسم مشترك مثل احسان وعصمت ورجاء) كيف تسلل الاله الخبيث الى قصر السيد الملك متخذا لنفسه شكل زوجها - ليستغفل الحراس فى اغلب الظن . وهناك فى مخدع السيدة كشف لها عن شخصيته الحقيقية . فهتفت تقول ما أحلى ان استملى وجهك وما احلى ان تضمنى اليك ! فلم يكذب المذكور خبرا . ولم يغادر المخدع الا بعد ان وضع فيها بذرة الهية للطفلة التى اختار لها اسم حتشبسوت ، والتى ستكون ذات جمال لامثيل له بين الآلهة ، ولتصبح ملكة على القطرين تقود الرجال فى هذه البلاد ! .

بهذه القصة نجحت حتشبسوت فى ان تقنع الناس بحقها الالهى فى عرش مصر ، ولعله من طريف مايذكر عنها انها فى نهاية حياتها لم يكفها ان تحكم البلاد بوصفها سيدة ، بل رات ان تحكمها بوصفها رجلا ، فتزيت بزى الرجال واطلقت لحيتها مثل منير اسكندر - اعنى بالطبع ركبت لنفسها لحية مستعارة ! .

أهم من السيدة ومن العلاقات الالهية المريبة لوالدتها ، تلك الرسوم المذهلة التى تغطى تلك المساحات الشاسعة من الجدران ، والتى لم تفقد روعتها رغم انها باهتة ومطموسة فى كثير من مواضعها بفعل كل من الزمن وتحتمس الثالث . اذ انه ما كادت السيدة تموت حتى اسرع الى جدرانها وهات ياشخبطة فى الرسوم لكى يمحو من الوجود كل شىء يتعلق بسيرة غريمته الميتة .

ونظرت الى تلك الرسوم الباهتة وقلت لبهجت الرسام :

- [illegible] عندهم فى مصلحة الآثار خريطة تفصيلية للرسوم دى ؟

ويقوله اه عرضت عليه تلك الفكرة الجريئة : لماذا لايستأذن الحكومة ثم يحضر هو وعدد من زملائه الرسامين وفى ايديهم براول الالوان ، فيعكفون على تلوين تلك الرسوم الباهتة وردها الى حالها الاصلى وفقا للخريطة ؟ فلست اشك فى انه لو اشتعلت تلك الجدران بتلك الالوان لوجدنا امامنا اضخم كرنفال لونى على الارض .

الفكرة أعجبت بهجت . فلا شك انه سيطلع منها بقرشين [illegible] بالاضافة الى دخول اسمه الى الأبد فى التاريخ الفرعونى . اما منير اسكندر فما كاد يسمع هذا الرأى حتى تراءت فى [illegible] نظرة غريبة اشد سوادا من لحيته التى اخذت تختلج [illegible] نظرة كراهية وازدراء يوجهها نحوى ، الأمر الذى جعلنى [illegible] حولى لأرى من ذلك الشخص الذى يكرهه فلم أجد أحدا سواى . وفهمت من كلامه - عندما استطاع ان ينطق - ان هذا الرأى الذى أدليت به لايخرج عن كونه كفرا صريحا ومبينا ،

وانه لاعاش الفنان الذى يجرؤ أن يعد يد التعديل الاثمة الى مابقى من اثار الفراعنة الامجاد . مثل هذا الفنان يجب أن تقطع يده الفور لكى يعيش معذبا بدون يد ، وبعد عام من هذا العذاب تقطع رقبته ايضا . وبينما هو يصب ذلك الغضب على الفنان كانت نظرته تقول انه يصبه على انا الاخر لاجترائى على قول ماقلت . فحركت منشتى امام وجهه مرتين ، تاكدت من جديد انها لحية لاذباب .

وامام الدير البحرى وجدنا مهرجانا سينمائيا عصريا ، مكونا من راقصى وراقصات فرقة رضا ، الذين يمثلون فيلما امام المعبد . ومن مكبر الصوت ينبعث صوت كورس من البنات ينشدن قائلات : توت توت ، حتشبسوت .. تمشى ياروحى فى قلب تابوت ! وكلمات اخرى من هذا النوع الذى نزل على دماغى – فى هذا الاطار من الجلال التاريخى – نزول جردل الماء الساقع ! فوالله لو ان حتشبسوت تنبات بهذا التهزىء من احفادها للعنت ابا اليوم الذى تسلل امون فيه الى مخدع امها ! .

(٨)

فى الشمس الحارقة واصلنا رحلتنا نحو نوع جديد من المقابر هو مقابر النبلاء ، اذ التفت نحو السائحة الامريكية التى مابرحت تضع الجريدة فوق راسها وقلت اسالها :

–لسه برضه ماتعبتيش ؟ .

فاصرت على قولها نو . وتنهدت انا فى صمت . الى مقبرة رجل اسمه « منة » قصدنا ، وعلمت من رفقائى انه كان يشغل منصبا يشبه منصب مدير الخاصة الملكية على ايام فؤاد وولده . فلعل هذا هو السبب فى تلك الرسوم التى تزين جدران قبره ، والتى تمثل الفلاحين والفلاحات وهم يزرعون القمح وغيره توطئة لان يحصدوه ثم يصنعوا منه الخبز والبيرة لزوم استمتاع السيد فى حياته الاخرة . حتى فى موته لايريد الوغد ان يصنع طعامه بنفسه ، بل

[illegible] أن يسخر الغير فى العمل ، بل ويعاقب واحدا منهم – فى الرسوم – لانه قصر فى العمل ! واذا لاحظنا صور الفتيات الجميلات فى ناحية أخرى من القبر فاننا نعرف ان الرجل لم يكن [illegible] أن ياكل ويشرب فحسب .

وخرجنا من هذه المقبرة الى مقبرة نبيل اخر يدعى « نخت » وفيها راينا عدة رسوم من اجمل واشهر الرسوم الفرعونية . صورة العازفات الثلاث ، واحدة تداعب اوتار القيثار والثانية اوتار العود ، والثالثة تنفخ فى الناى ، والثلاث اجمل من بعضهن ، خصوصا الوسطى التى نسيت أن تلبس هدومها . والصورة الثانية لثلاث – [illegible] – فتيات ، واحدة تقدم للاخرى فاكهة ما لكى تقضم منها [illegible] ، والثالثة تشم زهرة اللوتس . وعن قرب منهما فتاة يبدو انها [illegible] فرعونية والا فلماذا هى شبه عادية ؟ فى رشاقة تنحنى الى الامام وترفع ذراعها الذى يكشف عن نهد جميل ، تمد يدها لكى [illegible] قرطا فى اذن واحدة من ثلاث جميلات اخريات . فهذا الرجل – سى نخت – لم يكن ينوى فيما يبدو أن يضيع أى وقت فى الاكل كصاحبه « منة » .

وقد لاحظت ان وجه السيد نخت مطموس فى كثير من الصور بالرغم من ان باقى جسمه سليم . وبسؤالى عن السبب عرفت انها عملية تشويه مقصودة من أعدائه الذين اقتحموا المقبرة بعد وفاته . فالوجه عند الفراعنة هو معقل الروح . واذا انت شوهته فى صورته تكون قد خربت بيته وكدت أن تلغيه نهائيا من الحياة الاخرة ! فكرة صبيانية بالطبع ولكنها ليست مستغربة اذا نحن نظرنا لانفسنا . اليس يعيش بيننا اليوم من يؤمن بانه يستطيع أن يؤذى عدوه عن طريق احراق صورته وتخزيق عينها . كما يوجد بين العين والحين من يتوسل للايذاء بالنفث فى العقد ؟

(٩)

من هذه المقبرة الجميلة خرجنا من جديد الى شمس الظهيرة التى اصبحت كالنار ، والتى تحول المنطقة فى الصيف كما يقولون الى جحيم صرف . فلست ادرك لماذا اختار فراعنة الأسرات المتأخرة هذا المكان عاصمة لهم ، وكيف استطاعوا ان يحققوا فى هذا الجحيم كل هذه المعجزات الفنية والهندسية وهم يتصببون عرقا ، وليمة بشرية لهذه الأفواج من الذباب ؟ فاغلب الظن أن الدنيا لم تكن بهذه الحرارة فى تلك الأيام غير معقول عندى أن يدفن الفرعون الكبير نفسه فى هذا الفرن بلا مناسبة واضحة .

فبينما انا اهوى على وجهى استجلابا للهواء وطردا للذباب التفت من جديد الى السيدة الأمريكية :

ـ اظن موش معقول تكونى ماتعبتيش ؟ .

فقالت نو .

ـ فى الحر ده كله موش تعبانه ؟ .

ـ موش حاسة باى اعراض دوخان ؟ .

فاصرت على قولها نو ، وهو مادلنى على انه قد فاتتنى الى الأبد فرصة الخدمة السياحية التى اقدمها الى بلادى .

(١٠)

الشمس الساخنة تسفح صلعة رمسيس الثانى ، من أعلى رأسه الجرانيتية التى تبلغ فى ضخامتها حجم فيل كبير ، والملقاة على الأرض وسط سائر أعضاء التمثال المحطم ، الذى لاشك أنه كان رهيبا حيث وقف كالقدر يتصدر معبد الرمسيوم .

اذن التمثال وحدها طولها متر ، وارتفاعه وفقا لتقدير العلماء كان ١٩ مترا ، ووزنه بابلاش ـ الف طن !! فلاشك أن البلاد بعد بناء هذا التمثال ظلت مدة طويلة تعانى أزمة فى الجرانيت ... شمس ساخنة يدهشنى انها لم تصهر ذلك التمثال على مر الـ

من ثلاثة الاف عام ، ويدهشنى اكثر انها لم تتسبب فى اى نوع من الدوخان للسائحة الأمريكية . من وادى الملوك الى الدير البحرى والى الرمسيوم وهى ترفض أن تدوخ فاحملها او حتى تترنح فاسندها ، لاكسب فيها بعض الثواب من الناحية السياحية . ولاهى رضيت بأن تدوخ عندما تابعتْ إشارة بهجت نحو الرسم المحفور فى الجرانيت لاله التناسل « مين » . كل مافعلته هو أن اشاحت بوجهها ـ متوردا ـ وتشاغلت بطرد موجة وهمية من الذباب . فقلت لنفسى معلهش لسه قدامنا الكرنك .

وعبرنا النيل الى البر الشرقى حيث سرنا ـ بهجت وانا والسائحة والرسامة جاذبية سرى ومنير اسكندر ذو اللحية السوداء ـ فى طريق الكباش الشهير متجهين الى معبد الكرنك . وياخسارة لن اصفه لك وصفا كاملا اذ احتاج فى ذلك الى مالا يقل عن مائة صفحة . حسبك أن تتخيل أن مئات الأعمدة الضخمة الشاهقة ، ومئات التماثيل ذات الأحجام الخرافية ، والمسلات والجدران المسجل عليها بالرسم تاريخ مئات المعارك والغزوات ، والبوابات العديدة التى جعلت الشاعر اليونانى هومر يسميها بالمدينة ذات الابواب ، وفيما جعلت العرب يسمونها ـ لروعتها ـ مدينة القصور تلك التسمية التى حرفت على مر الزمان الى الأقصر . « مصر تحت ظلال الفراعنة للأستاذ محمد صابر » .

ومن بين الصخور الملقاة على الارض تنبت حلفاء كثيفة اشارت اليها الرسامة جاذبية وحذرتنا من الخوض فيها مخافة الثعابين . قالت كلمتها باللغة العربية فرايت أن انتهز الفرصة لتقديم خدمة سياحية ، وترجمتها لها بالانجليزية :

ـ فيه هنا تعابين ! .

ـ أوه ! .

ـ تعابين كتير ، قوى ! .

ـ اوه ! .

ـ وبتقرص كمان ! .

ـ أوه ! .

ـ يس .

ـ أمال مابتدوخيش ليه ؟ .

ـ آوه نو .

والصمت العميق عند البحيرة المقدسة « ٨٠ × ١٣٠ مترا » التي طفت عليها ذات يوم قوارب مزركشة تحمل تماثيل الالهة وسط انوار المشاعل ليلا ، في الاحتفالات الدينية التي تمثل فيها قصص وقصص عن احزان ايزيس . وثمة سفينة مسحورة لاتبرح حتى يومنا هذا ـ هكذا يشيع الصعايدة ـ تطفو فجأة على سطح البحيرة وهى محملة بالذهب . السعيد من تصادف وجوده هناك وقتها وامكنه أن يتسلل اليها ليظفر بسبيكة ذهبية تعينه مدى الحياة ، خصوصا اذا نسى أن يشير اليها فى اقراره الخاص بضريبة الايراد .

على شاطىء البحيرة وقفت اجيل النظر بينها وبين المسلات والتماثيل والأعمدة ، مفتونا أقول لنفسى سبحان الله .. اى غرام كان يجذب أولئك الفراعنة الى تلك الضخامة الرهيبة ! الف طن من الجرانيت لتمثال رمسيس ، وكم الف فى ابو سمبل وكم الف فى اهرام الجيزة الثلاثة . لماذا كل هذا الولع بالضخامة ؟ .

وباعرابى عن هذا الخاطر لبهجت قال ان الضخامة وان كانت غير مطلوبة في ذاتها فهى فى النهاية تعطى احساسا اكيدا بالجلال ، وهى على أى حال اقرب الى روح الفن من الظاهرة المتفشية فى عصرنا الحديث كبديل للضخامة ظاهرة الاسراف فى الكم فى انتاجنا الفنى .

فتفكرت فى الأمر حينا توطئة لأن اقول :

ـ هاها .

ونظرت الى المياه المقدسة اللامعة التى عكست أربع صور متراصة لنا ، واختلست النظر الى السائحة قائلا لنفسى أزقهاش ؟ فلو انها سقطت فى الماء لأتيح لى أن أظهر الشهامة المصرية

بالقفز وراءها لانقاذها ، ولكسبت بذلك بعض ما ننشد من الثواب السياحى . نعم لماذا لا ادفعها الى الماء ما دامت لاتريد أن تدوخ ؟ لكنها سرعان ما ابتعدت عن الشاطىء ، قرات أفكارى فى اغلب الظن .

وفى طريقنا الى الخارج ـ وأنا اسير متحاشيا وطء الحلفاء ـ خطرت لي نكتة رايت أن اغامر بقولها :

ـ غريبة أن التعابين هنا موش فى المحلة .

ـ المحلة ! اشمعنى المحلة ؟ .

ـ مش المحلة الكوبرا ؟! .

وانتظرت أن يضحكوا لكن احدا لم يضحك وهو مايدلك على سخافة النكت اللفظية .

ـ تيجى ايه التعابين ـ قال منير اسكندر ـ جنب العقارب ! .

وروى لنا كيف تهجم العقارب على الأقصر فى فصل الصيف ، حتى انه يقتل فى الليلة الواحدة مالا يقل عن عشر عقارب ! فاقشعر بدنى وبدأت اراجع نفسى فى امر العام الذى افكر أن اقضيه فى مرسم الفنون لكى أستمتع باطلاق لحيتى ، فهل يرضيك أن أصحو ذات صباح لكى اداعب لحيتى فتطلع يدى منها وفيها عقربة ؟ .

وعلى مائدة العشاء فى فندق عبد الرسول بالاس . بينما انا امصمص فخذ حمامة لذيذة خطر لى انه قد حان الوقت لكى استكمل معلوماتى عن الفن الفرعونى . لماذا مثلا يصر الفنان الفرعونى على أن يرسم بروفيل الوجه بدلا من رسمه من الأمام ؟ ولماذا يصر مع البروفيل على أن يرسم الصدر مستعرضا ؟ ولماذا يرسم العين فى وسط البروفيل بدلا من مكانها الطبيعى ؟ وكيف اتيح للألوان التى رسم صورة بها أن تبقى بهذه الروعة حتى الآن ؟ وفوق كل ذلك كيف رضى هذا الفنان لنفسه بأن يرسم كل تلك الروائع دون أن يوقع باسمه على اى واحدة منها ؟! .

فالحمد لله اننى كنت محاطا بثلاثة من الرسامين ـ جاذبية وبهجت وذو اللحية السوداء ـ اذ عرفت منهم الآتى ذكره :

بالنسبة للالوان لم يكن الفنان الفرعونى يرسم بالالوان الكيميائية مثلا ، وانما بالالوان الطبيعية التى يحصل عليها من الجبل فى شكل صخور واتربة حمراء وخضراء وزرقاء وعلى كل لون . تلك الالوان الموجودة فى الطبيعة منذ الأزل ، ما الذى يمنعها من أن تبقى ثابتة فى الصورة الى الأبد ؟ .

اما عن بروفيل الوجه والصدر المستعرض فقد اختلفت الآراء نوعا ، وان اتفقت فى النهاية على ان الفنان الفرعونى كان لا يستهدف فى رسومه شيئا سوى الجمال ولو كان ذلك على حساب المنطق والواقع . فلعله رأى ان بروفيل الوجه اجمل من الوجه نفسه ، وان الصدر المستعرض ووضع الساقين هو الآخر جميل بالرغم من مخالفته لوقفة الانسان الطبيعية . وكذلك الحال فى العين التى يرسمها حيث يتراءى له انها جميلة . فهو ليس عجزا من الفنان الفرعونى عن محاكاة الطبيعة ، والا فلماذا لم يبد هذا العجز فى صنعه للتماثيل التى راعى فى نحتها اقسى درجات المنطق والواقعية ؟؟ .

اما عن عدم توقيع الفنان على رسومه فذلك يرجع الى ان الفن الفرعونى كان مدموغا على الدوام بالطابع الدينى ، وفى مثل هذه الظروف جدير بشخصية الفنان الفرد أن تذوب فى الشخصية العامة لفن عصره .

وقالوا لى كلاما آخر سمعته بنصف أذن ، وذلك لانشغالى بمصمصة العظام وشفط النخاع من جوف الساق الأخيرة للحمامة .

والى حديقة الفندق انتقلنا لنهضم ونتفلسف ، نسمات الليل الرطبة نفت آخر احتمالات الخدمة السياحية التى اريد ان اؤديها عن طريق دوخان السائحة . وادار منير اسكندر جهاز التسجيل فانبعث منه صوت مطرب الصعيد « أبو ليلة » بأغنية صعيدية حزينة .

- من الفلس باداری بکی ... وما دام ظلموکی وضربوکی ... یحرم علینا دار بوکی ! .

وهناك عند الأفق الشرقى عبر الحقول الفسيحة اطل قرص القمر شاحبا مستديرا ، نفس القمر الذى سطع منذ آلاف السنين على رمسيس وحتشبسوت والنبيل نخت والعازفات الثلاث . فأحسست فجأة باننى انسلخ عن جلدى وأتحول الى ذلك الرجل نخت ، مضطجعا على الاريكة اشرب البيرة التى علمتى كيف اصنعها اوزيريس ، وأمامى تقوم العازفات الثلاث بالرقص والغناء . نعم اننى بنيت مقبرتى وهيأت نفسى للموت ، لكننى اعرف اننى يجب قبل ذلك أن استمتع بالحياة .

وبينما تعزف على المندولين تقدمت منى فى دلال فرعونى مسكر ، البنت الوسطى السمراء التى لا أعرف لماذا يخيل الى ان اسمها نفر ، والتى لا تلبس من صنوف الثياب سوى حزام لا أدرى ما انتفاعها به - اللهم الا اذا كانت تلبث ثوبا اشد شفافية مما ينبغى لأنثى حتى ولو كانت فى الاوبرج . بدلال تعزف وتتمايل وتتثنى ، تنشد اغنيتها وهى تذيب قلبى بنظرة فاتنة زرقاء .

- انا اختك الاولى ... انا لك كالحديقة التى غرست فيها الازهار ...

فأتنهد وأجرع البيرة فى انتظار المزيد .

- لما تهب ريح الشمال رطيبا ... فى المكان الجميل الذى اسير فيه ويدى فى يدك ... قلبى يفيض سرورا .

فعند ذلك أصرخ من الاعماق قائلا ياوعدى ! أعد والنبى أعد ! يافرعونى يا حلو انت !

فتعيد لتسكرنى ، ثم تسترسل منشدة :

- وان سماع صوتك يسكرنى ... وانى اعيش لكى اسمعه .. وعندما اراك يكون ذلك اشهى من الطعام والشراب ..

فأهتف من جديد ياوعدى . والقى على الارض من فرط النشوة مايتصادف أن يكون على دماغى من غطاء فرعونى .

- صوت اليمامة يتحدث الى فى الفجر ... اليس فى نيتك الخروج ؟ لا ايتها اليمامة فقد وجدت اخى فى فراشه ... انى اسيرة حبك ... قبلتك وحدها هى التى تبعث الحياة فى قلبى ... وعندما انالها سادعو آمون أن يحفظها الى الابد ..

فاهتف ينصر دينك يا امون ! وارفص بقدمى برميل البيرة لكى ينسكب على الأرض ويسكر النبات والحشرات وكل شيء حى . ثم اقوم مترنحا لكى اضم الفتاة فتصدنى بالماندولين وتواصل الغناء وثمة نظرة فى عينيها فرعونية ماكرة .

- كل ما يريد قلبى هو أن أستولى على كل اثاثك كسيدة لمنزلك وذراعى فى ذراعك ! .

يابنت الذين ! هى وصلت لأثاث منزلى ؟! ياأخى جك قطع دراعك ! وافيق لنفسى وقد تكشفت لى نواياها الخبيثة ، وأرتد من فورى الى كاتب هذه السطور . الا ما اتعس ذلك الجشع الأزلى الذى يملأ نفوس النساء ، وما اتعس ذلك العنصر الاقتصادى الذى ما برح طوال التاريخ يتدخل فى الحب بالافساد .

ويعود الصوت صوت « ابو ليلة » فى اغنيته الصعيدية الحزينة ، وتتثاءب السائحة الأمريكية وتنهض متجهة الى حجرتها وأنا فى اثرها اصيح :

- اذا داخت بالليل اندهوا لى اشيلها ! .

ويرتفع القمر فى سماء الاقصر فضيا لامعا ينعكس ضوؤه فى جلال على تمثالى ممنون الجالسين منذ الأزل يحرسان حقول القمح . فاتصعب وأتنهد واعجب من نفسى ايام زمان ، وعندما كنت انفر من الفراعنة وابغضهم واخشاهم ، متأثرا بما قاله لى مدرس الدين من عبادتهم للأوثان وعن ايذائهم لكل من موسى ويوسف ، وبما اقرا فى الصحف عن لعنتهم التى تصيب الأبعد . فكان لزاما على أن اقرا تاريخهم بنفسى ، وأن اقرا تاريخ الأديان المختلفة كيف نشأت وكيف تطورت ، وذلك لكى أكتشف مدى الدين الذى تحمله البشرية فى عنقها لأجدادى العظماء . فالتوحيد نفسه

من صنع أخناتون قبل ان يقول موسى كلمته ، اذ شق موسى النهر بعصاه لكى ينقذ اسرائيل من بطش فرعون - ما أشك فى أنه لو كان يدرى بما يضمرونه لتردد قبل أن يشق النهر أو لشقه وعبر وحده تاركا اياهم يغرقون ! .

المجد لآمون والعازفات الثلاث ووداعا يا أرض الأجداد ! .

فى سفينة نوح

بين النوم واليقظة ساورنى شعور غريب بأن السرير يتأرجح بى ، وأن جدران الحجرة نفسها تتمايل ، ومستبعدا فكرة أن يكون طفح المجارى بمنطقة الهرم - حيث أقيم - قد تحول الى بحر تطفو على سطحه البيوت كالسفن ، تذكرت فجأة اننى فى سفينة حقيقية قضيت فيها ليلتى ضمن الرحلة التى نظمتها جمعية الأدباء الى البحر الأحمر ، السفينة عايدة ٢ بقيادة مرشد علام .

سرير فوقى يضم رجاء النقاش ، وسرير بامتداد سريرى يضم محمد صبرى ، لو اننا أطول بعض الشىء - صبرى وانا - لامتدت ساقاى فى سريره وامتدت ساقاه فى سريرى ، ولوجدنا نفسينا ننام خلف خلاف . وفوق صبرى سرير رابع يضم بهجت عثمان ، شخيره المتقطع ايقاعا لا بأس به للدوى المتواصل لموتور السفينة ، وذراع منه - من بهجت لا الموتور - تتدلى من السرير وتكاد تلامس صلعة صبرى ، وموقفنا كله اشبه بصورة كاريكاتير بريشة الرسام النائم . لاشك أن السرير العلوى أحسن من السفلى ، ولكن الاخير أنسب لرجل مثلى ينهض فى الليل عدة مرات لكى يدعبس فى الظلام على زجاجة نقط الأنف أو على المنديل او على سيجارة يسلى بها نومه .

وضوء عود الكبريت يقول لى أن الساعة الخامسة والنصف ، فلأنهض سريعا قبل أن تتحرك السفينة من رصيف ميناء السويس . وقبل ذلك بالطبع يجب أن اغسل وجهى .

(٢)

الحنفية خسرانة ولا ايه ؟ لماذا افتحها فينزل الماء ، ثم أرفع عنها يدى فتنقفل وحدها وينقطع الماء ؟ كلا هى ليست تالفة ، بل



الرجل الجميل

شايفة القمر يا نفسى !!



مش الفنار ده للإرشاد ... طب والنبي فين سكة السيدة زينب

انها فى أغلب الظن حيلة متعمدة لارغام الركاب على الاقتصاد فى الماء . وهى والله فكرة لا بأس بها ابدا . فليتهم يطبقونها فى حنفيات المنازل بالمدن . هذا وان كانت مزعجة بعض الشيء اذ

تلزمنى بأن « ارغى » الصابونة بيد واحدة فقط . فتطلع رغوة هزيلة اعوض بها وجهى والاسم اننى غسلته . لكنها مهما كانت احسن من أن ينفد الماء من خزانات السفينة ونضطر الى أن نشرب من البحر .

ومن خلفى سمعت صوت اصطدام شيء بشيء آخر اصلب منه . والتفت لأرى محمد صبرى وقد وضع يده على رأسه الذى ارتطم بسرير بهجت أثر محاولة مفاجئة للنهوض . فلعله داخ من الصدمة والا فلماذا انطرح ثانيا وعاود النوم ؟ .

(٣)

هواء البحر رطب منعش . انعشنى والله حيث وقفت وحدى على سطح السفينة . انا وعدد من البحارة الذين يلقون بالحبال الى لنش عند مقدمة السفينة وآخر عند مؤخرتها . وهما اللنشان اللذان سيجذبان السفينة مبتعدين بها عن الرصيف . اذ انها لا تستطيع أن تعتمد على محركاتها فى هذا الحوض الضيق .

عشرة عمال لاغير يتولون تحريك هذه الكتلة الضخمة بكل ما فيها من ناس نيام . فبورك فى اليد العاملة وفى الناس الذين يصحون مثلنا بدرى .

فى هدوء ورشاقة واناقة تبتعد عايدة عن رصيف الميناء . خيل الى لشدة اناقتها انها تتحنجل فى كبرياء . والكل نيام الا انا . ما كنت اعرف أن نوم الادباء ثقيل بهذه الدرجة . فجدير بى فى الليلة القادمة ـ لكى ابدو فى الصورة الادبية اللائقة ـ أن آخذ قرصين من الليبريام .

واخيرا خرجت عايدة ٣ من الحوض الضيق . فشغلت محركاتها وبدأت تمخر ـ كما يقولون ـ عباب البحر .

(٤)

الجرسون الاسمر عم عبدالعزيز يطرق بقطعة من الحديد قرصا من النحاس . هو « الجونج » الذى يعلن للركاب ساعة الافطار . قلت لنفسى اننى مادمت اول الصاحين فلابد اننى ساكون اول

المقطرين . لم اكن اعرف بعد ان الاول فى هذه الناحية لايمكن ان يكون سوى الشاعر كمال عمار .

هناك رأيته يجلس وحده فى المطعم فصبحت عليه وجلست قبالته . رجلان جائعان ينتظران وصول الطعام . كان يجلس عابسا لسبب لا اعرفه . وفجأة رأيته يبتسم لشخص يراه خلفى . ابتسامة عريضة فرحة شاعت فى الوجه الذى كان عابسا ، ونظرة غزلة رقصت وراء نظارته ، فايقنت انه رأى انثى من ركاب السفينة والتفت بسرعة خلفى . لكنها لا كانت انثى ولا كانت فاتنة ، وانما كانت عم عبدالعزيز يحمل صينية الطعام ! فدهشت ولم اعلق بشىء ، اذ لم اكن قد عرفت بعد ان كمال عمار يشتهى الطعام بنفس الطريقة التى اشتهى انا بها كلوديا كاردينالى ، وانه لو خير بين ساق المذكورة ذات الغمازات الثلاث وساق فرخة لفضل الاخيرة وطظ فى الغمازات ! .

فى صمت مقدس تناول السكين وراح يغرف به من الزبد ويكدسه على شريحة توست ، فبينما هو يقضمها تراءت فى عينه نظرة صوفية غامضة ، وخيل الى اننى استمع الى صلاة بعيدة يرتلها كورس من كهنة امون . ثم عصر الليمون على الفول المدمس ورش الملح ، ثم قشر البيضة المسلوقة ورفعها الى انفه ليشمها ، اكاد اقسم انه قبل أن يقضم منها طبع عليها قبلة حنان . ومشيرا الى الصحن الآخر الذى ترقد فيه اربع كرات من لقمة القاضى نظر الى عم عبدالعزيز قائلا :

ـ تأخذ اتنين من دول وتجيب بيضة ؟ .

فابتسم عبدالعزيز ومضى فى طريقه . وانكب كمال ـ على صحن الفول مثلما ينكب عريس على عروسه فى ليلة الزفاف .

(٥)

السفينة فى عرض البحر الذى لا يلزمنى بالطبع ان اقول انه أزرق . فلست ادرى اين طلعت عليه تلك التسمية الغريبة بانه بحر

احمر . فلعله كان احمر ذات يوم ثم أزرق بسبب او اخر . مثل البحر الذى كان ابيض والآخر الذى كان أسود .

لكنه على اى حال ـ احمر او ازرق ـ كان متعة للعين والقلب ، وهواؤه والله ولا الاربيج . والموج بجانب السفينة يرقص فى جنون ، وفى رقصه يرسم بالزبد الابيض الافا من التشكيلات والنقوش الرائعة ، كأننى انظر الى نقوش على ثوب من القماش المستورد الذى يباع للأغنياء فى محلات ها ـ معذرة اعنى ا ـ نو .

وانغام جميلة تنغبش فى اذنى من بعيد . مقطوعة من الكونشرتو الايطالى لطيب الذكر باخ ، تعزفها على البيانو اصابع ماهرة ربما كانت اصابع المرحوم روبنشتين ـ ولا ده لسه ماماتش ؟ فاسرعت نحو مصدر الصوت لكى اكتشف انه ليس راديو ، بل ان فى السفينة بيانو اسود اللون عتيقا ، وامامه جلست فتاة رشيقة سمراء فى عشر ينياتها ، هى التى نجحت فى ان تنطقه بيديها الصغيرتين بكل هذه الانغام . سألت من تكون فقيل لى انها سونيا بس ، اخت رمزى بس الذى يقال انه أجدع عازف بيانو فى مصر ، وبنت الدكتور ناجى بس .

الاصابع الصغيرة السمراء ترفرف عل المفاتيح وتلتهمها التهاما ، اصابع البنت التى تخرجت اخيرا من الكونسر فاتوار . فكأننى ارقب فيها كائنا من كوكب اخر . انا الذى لم انجح طوال حياتى فى ان انطق البيانو بشىء سوى السلام الملكى . وبصباع واحد طبعا !

ولاشك ان الدكتور ناجى بس احد اولئك الآباء النادرين الذين نجحوا فى تربية اولادهم .

ـ تتبنانى يادكتور ؟ .

هكذا سألته فابتسم وصوب الى كاميرته ليرسمنى صورة ، الكاميرا الثمينة التى يعلقها فى عنقه وتتأرجح طول الوقت على صد[illegible] طبيب العيون ورئيس جمعية التصوير الفوتوغرافى وأبو ـ

السفينة تمخر كما يقولون عباب البحر ، وفى ركن من سطحها جلس الشاعران أحمد رامى وصالح جودت ، سارحين فى خيالات هى فى أغلب الظن من البحر الطويل . وفى ناحية أخرى جلس رجاء النقاش يقرأ ، وأمامه يوسف الشارونى يقرأ ، يقلبان صفحات الكتاب وكأنهما فى مباراة اطلاع . فالنقاد كما تعلم يجب أن يقرءوا الكتب قبل أن ينقدوها . وإن كنت أعرف نقادا يفعلون العكس ! ومثلهما فى القراءة الدكتورة نعمات فؤاد ، والدكتور عفيفى محمود . فالحمد لله أن الدكاترة يعرفون أن الدكتوراه ليست آخر صيحة فى العلم .

ورجل طويل نحيل تهادى فى كسل نحو كرسى قماش طويل وتمدد عليه ، وماهى الا لحظة حتى أغمض عينيه ونام . وغير بعيد منه رجل أنيق مسبسب الشعر لامعه ، على شفتيه ابتسامة فيها لزوجة من بريانتين شعره ، وعينه مصوبة الى البحر وإن كنت واثقا من انه لا يراه . فهى نظرة نقاوية متجهة الى الداخل لا الخارج ، نظرة جوانية يتأمل بها مئات الأشياء الجميلة التى يزخر بها داخله . فهو فيما يبدو لم يحضر الى البحر الأحمر لكى يستمتع بجماله ، بل حضر لكى يتيح البحر المذكور فرصة الاستمتاع بجماله الخاص .

وها هو يهجت مقبل بالبيك اب الترانزستور ، وضعه على الدكة الخشبية واشتغلى يافيروز ! فبهجت يكاد لا ينتقل الى اى مكان بغير هذه العدة . البك اب وفيروز . فى بيته يسهر مع فيروز ، وفى مكتبه بالمصور يسمع فيروز . لن اندهش اذا رأيته يوما يعبر ميدان الاوبرا وهو يدفع امامه عربة يد عليها اسطوانة دائرة لفيروز !

فيروز تشدو والناس تصفق مع ايقاع الدبكة وهو ما اثار فى هبة عنايت فولكلورياته الخاصة فارتفع صوته بأغنية صعيدية حزينة .

لكن شيئا من ذلك لم يلهِ صبرى موسى عن التشبث بسنارته محاولا أن يصيد السمك ، ولا صالح مرسى عن شخشخة الزهر



واحشانى يا حبيبتى يا عايدة



ده طعم عشان نصطاد بيه « القرش »

محاولا أن يعوض العارس الذى سجله عليه عبدالله الطوخى ، ولا محمد صبرى عن اللف بالكاميرا هنا وهناك كالنحلة يلتقط الصور ، ينافسه فى ذلك الدكتور ناجى وحلمى مراد .

والرجل النائم ما زال نائما ، والآخر الجميل مازال يبتسم للفضاء ، والسفينة كما يقولون تمخر عباب البحر . اين جمال كامل ؟ .

(٧)

هو فى صالون السفينة مشغول بتصوير فتاة لطيفة بيضاء وظيفتها مهندسة كيميائية . فلماذا لا يكون التصوير على سطح السفينة فى النور ؟ لانه يا جاهل – كما قالوا لى – لا يوجد فى النور تنوع فى الظلال ، وما قيمة صورة بغير ظلال ؟ .

فوقفت فى صمت ارقب الموقف ، اذ ينظر جمال الى الورقة وبقلم طوله ثلاثون سنتيمترا يجرى عليها بخط او خطين ، ثم يلتفت الى الفتاة بسرعة ليوجه اليها نظرة صاروخية خاطفة . خط ونظرة وخط ونظرة ، بدأ وجه الفتاة ينتقل كالسحر الى ورقة جمال كامل . فلعل هذا هو السبب فى تلك التطورات اللونية التى ما برحت تتعاقب على وجهها الابيض الخجول ، اذ يحمر مرة حتى يشبه قلب بطيخة شيليان ، ثم يهدأ لونه ويصبح بمبة ، ثم يصبح بمبة مسخسخ توطئة لان يبيض بشدة وكانه غسل باومو . هذا بالاضافة الى الضحكة اللاارادية التى تنفلت منها بين الحين والحين اذ ترقب نفسها لحظة بلحظة وهى تتحول من بنت الى صورة .

فبينما انا اتفرج على المنظر شعرتُ بالحسد للرسام بصفته الفنان الوحيد الذى يباح له ان يربط الفتيات امامه بهذا الشكل ، بعكس الكاتب الذى كتب عليه أن يرسم كل صورة من الذاكرة . وفى نزوة تمرد اخرجت من جيبى نوتة وقلما وجلست امام الفتاة قائلا فى اغراء :

– تسمحى لى اقعد قدامك واكتب مقالة ؟ .

– فقالت لا .

– برضه لا .

– طيب قصيدة ؟ .

– لا يعنى لا .

فتنهدت وغادرت المكان ، من بعيد وقفت ارقب المنظر وأنا من جديد اشعر اننى امام كائن من كوكب آخر . انا الذى لم انجح طوال حياتى فى أن ارسم أى شىء سوى صورة قطة ، وحتى هذه الصورة لاتنجح فى اقناع الناس بها ما لم اكتب تحتها – مع سهم موجه اليها – انها قطة .

(٨)

عايدة خففت من سرعتها فجأة ثم وقفت ، والسبب هو ذلك الفنار البعيد الذى ينتظر التموين . فنار فى عرض البحر مبنى على

كتلة كبيرة من الصخر الاصفر . نسيت أن أسال من اين أتوا بهذا الصخر وكيف بنوه . اسطوانة طويلة مخروطية تقف وحدها فى وسط البحر ، مخرمة بالأشرطة الملونة مثل سيارات القطاع العام ولكن على أذوق طبعا . وفى أسفل المسلة العجيبة انتفاخ كبير ، وفى الانتفاخ ثقوب هى النوافذ التى يعيش وراءها عدد من الرجال النادرين . فلا شك أنه رجل نادر ، ذلك الذى يقبل وظيفة فى الفنار حتى ولو كانت من الدرجة السادسة الفنية . شهر بعد شهر لا يرى سوى البحر والسماء والبواخر العابرة التى تتحاشاه وتفر منه فرار السليم من الاجرب . يتذكر الدنيا ولا يراها ، ويتخيل الأشياء ولا يلمسها ، ويحلم بالتموين المقبل ولا كمال عمار ! .

وانزل من السفينة لنش بدءوا يكدسون فيه الزكائب والصناديق التى تضم غذاء الاسابيع المقبلة ، وخرطوم ماء ادلى من السفينة ليملأ خزانا خاصا فى اللنش . وانا انتهز هذه الفرصة لكى اتقدم الى كافة دور الصحف ودور النشر بالاقتراح التالى : مارايكم فى ارسال كافة مطبوعاتكم الدورية وغير الدورية مجانا لاولئك الرجال الذين - كالشموع - يضيئون للناس وهم يحترقون من الوحدة ؟ .

لاشك انه اقتراح سليم ارجو ان يطبق بسرعة - اللهم الا اذا كان مطبقا فعلا وانا لا ادرى .

(٩)

- قرش : قرش : قرش : .

صرخات عديدة وحشية ترددت حولى بتلك الكلمة ، فصرخت انا فى لهفة اقول :

- فين ؟! فين ؟! .

وانحنيت على الارض ابحث عن القرش المذكور بدون جدوى ، اذ اكتشفت بعد حين انه ليس قرشا مما فى بالى ، بل انه سمكة من اسماك القرش التى يشتهر بها البحر الاحمر ، فوقفت وتابعت اشارات الاصابع الى الماء .

بقعة خضراء تتموج تحت سطح الماء ، شبه هلامى اخضر لكائن يتلعبط فى البحر ، ملك من ملوك الاعماق الغامضة . وعند مؤخرة السفينة كانت هناك وليمة تليق بالملك ، كتلة كبيرة من اللحم رشقت فى خطاف السنارة التى علمت انه مصنوع من الصلب لزوم أسنان القرش .

البقعة الراقصة الخضراء تقترب من الطعم وتشمه ثم تبتعد ثم تقترب وتبتعد ، وصمت رهيب خيم على كافة ركاب السفينة فى انتظارهم المتوتر للحظة الحاسمة - كافة الركاب الا الرجل النائم بالطبع ، والآخر الجميل الذى صوب الى القرش بسمته اللزجة وخيل الى اننى اسمعه يقول له :

- شايف ياقرش انا حلو اد ايه ؟ ! .

وكمال عمار واقف بجانبى وهو يبتلع ريقه تباعا ، اذ انه فى اغلب الظن يحسد القرش على تلك اللحظة التى ينطبق فيها على كتلة اللحم فكاه .

- هيه ! هوه ! هاه ! .

صرخات الفرح الوحشى وقد انطبق الفكان على اللحم والخطاف ، وشرع البحارة يجذبون القرش ليبرزوا رأسه فوق سطح الماء . ويبروز الراس المذكورة انهالت عليها العصى الطويلة الغليظة بالضرب المميت ، وذلك لان القرش ليس من الاسماك التى ترفع الى سطح السفينة الا بعد ان تسلم الروح تماما ، وضرب ضربة طائشة من ذيله السميك تكسر رجل العدو .

ودارت الحبال على بكرة من الصلب لكى ترفع القرش الذى مات ، ماهى الا لحظات حتى كان يتمدد على سطح السفينة وسط صيحات الانتصار . فادهشنى مدى ضخامته ، وادهشنى اكثر من ذلك انه اسود اللون لا أخضر . فالالوان كما تعلم مسالة نور وظلال . ثم رفعوه وعلقوه من ذيله وبدا مهرجان التصوير ، كل رجل فى السفينة يريد أن يقف بجانب الفقيد ويصور معه فى هيئة انتصار . والدماء تسيل من رأسه المحطم وتغرق ارض السفينة

الكائن الفاخر الذى مات فى سبيل قطعة من اللحم .

ثم تبين انهم لم يصيدوه وانما صادوها ، اى انها - كما قال البحارة - انثى لاذكر . كيف عرفوا ذلك لا ادرى ، والمهم انهم ادلوا الخطاف فى البحر بكتلة جديدة من اللحم ، اذ ان السيد الزوج - هكذا قالوا - لن يلبث ان يفتقد زوجته ويحضر للبحث عنها فيلقى نفس المصير ، حاجة كده زى يانعيش سوا يانموت سوا .

لكن شيئا من ذلك لم يحدث ، وساعة كاملة مرت دون أن يصل القرش الحزين ، فلابد انه ليس حزينا بالقدر الذى تصوروه ، وربما كان فى هذه اللحظة واقفا يرقب المنظر من بعيد ، وبجانبه قرشه حية يقرصها فى ذيلها ويقول لها باسما وهو يشير الى زوجته المعلقة :

- الدناوة مفيدة ، هه ؟ ! .

١٠

رن فى الاسماع صوت الجونج فاتجهنا الى المطعم ، ومن عند الباب رأينا كمال عمار قد سبقنا الى المائدة وراح يحول نصف السلطة فى صحنه الخاص ، فاسرعنا لننتظم حوله قبل فوات الاوان ، وابتسامة عريضة لمعت على وجهه عندما اكتشف ان غداء اليوم فيه فراخ .

- صدر من فضلك ! .

هكذا قال لعبدالعزيز وهو يواصل الابتسام ، ثم راح ينظر الى الصدر الراقد على صحنه وكأنه لايصدق عينيه ، توطئة لان يمد نحوه يدا مرتعدة ليطبطب عليه فى حنان .

قال بهجت وهو يرقبه :

- ده موش ح ياكل الفرخة ... ده ح يتجوزها ! .

فضحكنا وعكفنا على الاكل بالشراهة المناسبة للبحر الاحمر . وبينما اكل لمحت الرجل الجميل حيث عكف على دجاجته الخاصة يغمرها بابتسامته اللزجة واكاد اسمعه يقول :

- شايفة يافرخة انا طعم اد ايه ؟ !

١١

الموج يعربد حولنا بينما السفينة - كما يقولون - تمخر عباب البحر ، حتى ليخيل الى ان البحر هو الذى يمخر عباب السفينة ، والرياح اشد عربدة من الموج ، فى سكرة مفاجئة للماء والسماء فى البحر الاحمر ، هى قطعا سكرة من سكرات الطبيعة والا فكيف ذاتها انها تقلق راحتى حيث جلست على الدكة الخشبية الخضراء فى السفينة عايدة ٢ ، متارجحا الى الامام والى الخلف كأننى اركب بدلا من السفينة جملا !

وامامى سار الشاعر احمد راضى مترنحا من سكرة الطبيعة ، يخطو خطوة الى الامام واثنتين الى الخلف ، رافعا فى الهواء ذراعين حائرتين تحاولان التشبث باشياء غير موجودة اصلا . ورجل من الركاب اقبل هو الآخر مترنحا ووقف بالقرب منى ، لحظة راح يتاملنى بعينين غريبتين ثم تقيأ ، فتركت له المكان وجـ... بعد كفاح شاق فى السفينة المتارجحة - على دكة اخرى ، فما هى الا دقيقة حتى اقبل رجل ثان ووقف هو الآخر - مترنحا - يصوب الى نفس النظرة الغريبة توطئة لان يتقيأ ، فتركت له المكان ووقفت عند سور السفينة متشبثا به كى لااقع ، وقع بصرى على رجل فى الطابق السفلى يمد راسه الى البحر ويتقيأ ، فالحمد لله ان هذا الرجل - الذى تحتى - لم يكن يرانى اصلا ، إلا لاخذت الامر بوصفه قرفا عاما من شخصى انا .

وبينى وبينك لست افهم لماذا يميل الناس الى التقيؤ عندما تتارجح السفن ، واذا كان القىء ضرورة فلماذا لا اتقيأ انا ؟ ايخيل الى انهم يفعلون ذلك لمجرد انهم قرموا عن القىء بوصفه ظاهرة من ظواهر دوار البحر ، وانهم لايريدون ان يبدوا اقل من سائر الناس علما بالتقاليد البحرية ، او لعلهم طائفة من الوجوديين الذين ارادوا ان يغتنموا فرصة العاصفة لاستعراض شىء من الغثيان الميتافيزيقى .



لولا انت عارف انى فى الفراح باحب البحر

لكن شيئا من كل تلك الضجة لم ينجح فى ايقاظ الرجل النائم ، فهو فيما يبدو يحتاج فى ايقاظه الى اجراءات اشد فاعلية من مجرد عاصفة على البحر الاحمر ، والآخر الجميل جالس بالقرب منه وقد أعطى وجهه للرياح ، لمسة غير مالوفة من المرارة تشوب ابتسامته وكأنه يقول للعاصفة :

ـ اخص عليكى يا عاصفة .. موش عارفة انى موجود فى المركب دى ؟ !

ولعله ادرك انه ما كان يجوز له ان يسرف هذا الصباح فى استخدام البريانتين ، والا لامكن للرياح ان تقلق خصلة من شعره وترسلها على جبينه لتزيده ـ وهى تتطاير ـ جمالا .

لكن البحر فيما يبدو انثى لا ذكر ، والا فما هذا الهدوء الذى بدأ يسرى فى كل من موجه ورياحه ، وما باله ـ كما غضب فجأة ـ يوشك ان يضحك فجأة ؟

(١٢)

والسفينة نفسها هدات من سرعتها ثم وقفت ، لكى تمون بالطبع ذلك الفنار القريب الذى قيل لنا انه مبنى على جزيرة طبيعية من صخور المرجان التى مابرحت تتكاثر وتتراكم وتتماسك عبر مليون سنة واكثر .

مسلة بعيدة تقف هناك وحدها ، فى نقطة المركز من دائرة خضراء فى وسط البحر . البحر كله ازرق بلون اللازوردى ان كنت تعرفه ، وبلون زهرة الغسيل التى لا اشك فى انك تعرفها ، الا تلك الدائرة الصغيرة الخضراء فى وسط البحر حول الفنار ، خضراء بلون الفيروز وبلون عينى قطتى بوسى ، وذلك بسبب ما يكمن تحتها من صخور المرجان ، وبسبب ان الالوان كما سبق لنا القول مسالة نور وظلال .

ومن السفينة انزل لنش هرعنا اليه وتكدسنا فيه ، وانطلق بنا نحو الفنار طالعا بفعل الأمواج ونازلا ، ورذاذ الماء يتطاير ويبل وجوهنا وثيابنا فنصرخ ونضحك كالعيال .

وهناك فى بلكونة خلفية للفنار وقفت وحدى امام اجمل منظر رايته فى حياتى ، البحر العريض الأزرق المحيط بى من كافة الجهات ، وفى وسطه ـ تحتى مباشرة ـ تلك الدائرة السحرية الخضراء ، والسكينة التى هى سكينة ، والنسيم المسكر ، واحساسى بملايين الكائنات التى تعيش فى تلك المياه الخضراء ، فشعرت بدموع تريد ان تترقرق فى عينى من فرط التأثر ، لكننى كبحتها بالطبع لكيلا يغيم زجاج النظارة . فليت احدا يدعوننى لكى

اقيم فى ذلك الفنار اسبوعا . وان كنت واثقا بان الدموع التى ساكبحها فى نهاية ذلك الاسبوع هى دموع السجين الذى يصرخ قائلا انا مظلوم !

وعند الخط الفاصل بين الدائرة الخضراء والبحر كان لزاما عليهم ان يشدونى شدا لكى اركب الزورق العائد الى السفينة . فهل رايت فى حياتك خطا يفصل بين لونين فى الماء ؟ هل رايت ماء نصفه اليمين اخضر ، ونصفه الشمال ازرق مع انهما فى وعاء واحد ؟ وهل رايت هذا الماء الاخضر يتموج نحو الازرق فيزرق ، ثم ينسكب الازرق نحو الاخضر فيخضر ، مع وجود خط متعرج وهمى قائم الى الابد بين اللونين ؟

(١٣)

بين النوم واليقظة سمعت صوت جسم صلب يرتطم بجسم اصلب منه . لابد ان محمد صبرى قد صحا من النوم . فيبدو ان صبرى لن يخرج من هذه الرحلة بغير عاهة مستديمة فى راسه . دعك من الاصلاحات التى يجب اجراؤها فى حافة السرير العلوى حيث ينام بهجت .

ومتثائبا مددت يدى تلقائيا نحو مكنة الحلاقة . لكننى مابرحت ان رددتها قائلا لنفسى ليه تحلق ياواد ؟ اننى فى القاهرة احلق لحيتى كل يوم على سبيل المجاراة للرسميات ، ولكى ابدو ـ فى حدود المستطاع ـ جميلا ... لكننى وانا هنا فى عرض البحر لماذا احلقها ؟ ماقيمة الرسميات لو هبت عاصفة اخرى قلبت بى السفينة ، وما الفرق ـ بالنسبة لجثة تدفعها الامواج الى الشاطىء ـ بين ان تكون تلك الجثة حليقة او بلحية ؟ واما عن الجمال فما انتفاعى به على ظهر سفينة كل اناثها محجوزات من سنوات ، ومهما كنت جميلا فلن اكون فى النهاية اجمل من الرجل الجميل ؟

خواطر لا اظنك تجادل فى كونها جادة وعميقة ، ولذلك ما كدت

اقضى بها الى صبرى حتى وافق عليها لفوره ، كما وافق عليها جمال كامل الذى تصادف ان دخل علينا فى تلك اللحظة . فسرعان ماعقدنا معاهدة ثلاثية على الا نحلق لحانا طالما نحن على السفينة عايدة ؟ .

(١٤)

دق جونج الغداء فنظرت الى كمال عمار وهو يبتلع ريقه . ولا ادرى لماذا تذكرت العالم الروسى بافلوف . وعلى المائدة تبسم كمال فى حنان للجرسون العابر بوعاء البامية . فانجذب الرجل للابتسامة واقبل نحو كمال ، من غير ان يساله ماذا يريد افرغ فى صحنه كبشة اضافية من البامية .

وبعد حين فرغ الماء من الشفشق الذى على مائدتنا وكان الجرسون بعيدا عنا فقلت لكمال :

ـ ما تبتسم له علشان ييجى !

فزعق لى فى استنكار وقال :

ـ اما ابتسم له ع البامية .. ابقى ارقص له ع الرز ؟ !

فضحكنا بما يناسب الموقف ، وترامى الينا صوت تكشف لنا منه ان الرجل الجميل ليس جميلا فحسب وانما هو دقيق ايضا ، اذ سمعناه يقول للجرسون فى لهجة احتجاج وهو يشير الى ورك الفرخة الراقد على صحنه :

ـ ايه ده .. جايب لى ورك شمال ؟

(١٥)

الساعة الخامسة عصرا ، من ساعة كاملة وهى تشير الى الخامسة . والسفينة واقفة لزوم الانتهاء من تموين هذا الفنار الجديد . لم اكن اعرف ان الفنارات فى البحر الاحمر كثيرة بهذا الشكل ، وان تموينها يحتاج الى كل هذا الوقت .. ولذلك قلت للقبطان عندما سالنى ان كانت الرحلة ماشية !

ـ الرحلة ماشية لكن المركب واقفة !



هو كل يوم سمك ... مع ان التلاجه فيه لحمه

هذا وهو يجلس امام بهجت الذى أصر على ان يرسم له صورة كاريكاتيرية ، صورة لذلك الوجه الخشن ذى القسمات التى يخيل اليك انها قاسية قبل ان تفاجئك خلالها تلك الابتسامة العذبة العريضة . فما هى الا دقائق حتى كان وجه القبطان قد انتقل الى

ورقة بهجت . من جديد احسست اننى ارى فيه ـ فنان الكاريكاتير ـ كائنا من كوكب آخر .

ورفعت يدى الى لحيتى الشائكة ، ورفع كل من جمال وصبرى يده الى لحيته الخاصة ، ووجدنا انفسنا نتثاءب فى وقت واحد . رجاء النقاش يتثاءب وهو يقرأ ، ويرد عليه يوسف الشارونى وهو يقرأ ، ونظرت الى ساعتى فوجدت انها عابرحت الخامسة .

ـ سيليني !

هكذا قال رجاء النقاش لهبة عنايت وهو يتثاءب من جديد ، فتثاءبت هبة وبدأ يترنم باغنيته الصعيدية الحزينة ، وكانت تعبر عن غربة رجل صعيدى ورغبته ـ ميتا ـ فى ان يعود الى ارض الوطن . لست ادرى ماذا يحدث لى لو حكم على برحلة طويلة فى عرض البحر الى استراليا . اغلب الظن اننى سأموت فى الطريق من شدة الملل ويضطرون الى دفنى فى سيدنى .

(٢٦)

الانامل السحرية لسونيا بس تجرى على مفاتيح البيانو العتيق بروندو من روندوهات بيتهوفن . وانتهى العزف فصفقنا بما يناسب المقام . ونهضت سونيا فتقدم من البيانو شاب طويل عريض انيق ، جلس على الكرسى وهو يتنحنح فى وقار وثقة . توطئة لان يمد الى البيانو اصبعا واحدة ليسمعنا بها مقدمة ضى القناديل ! فطوبى لمن يملكون هذا النوع من الجرأة التابليونية النادرة .

غير ان الروندو سالف الذكر هيج اشجانى لبيتهوفن . وبالطبع كنت قد احضرت معى بعض اسطواناته . فوضعنا على البيك اب الترانزستور تبع بهجت اسطوانة تضم الكورال الشهير من السيمفونية التاسعة وجلسنا نسمع . وغير بعيد منا جلس حول الطاولة الاديب محمد القرش « وده غير القرش اللى اصطدناه » . والاخير ينظر نحونا بين الحين والحين ـ ولسبب غير مفهوم ـ شزرا . واخيرا نهض واقبل نحونا قائلا :

ـ تسمحوا توطوا البتاع ده شوية ؟!

وبسؤاله عن السبب قال ان صوت الموسيقى يفسد عليه صوت شخشخة الزهر وقرع القشاطات على خشب الطاولة !

- تحب نسمعك حاجة تانية ؟

فأجاب بالنفى ، لا لانه - كما شرح لنا - لا يحب بيتهوفن فحسب ، وانما لانه لايحب الموسيقى كلها ، اه ! وتركنا ومضى ، وصوت مفاجىء لأم كلثوم ترامى الينا من راديو آخر ادارته احدى الانسات فى الركن البعيد من الصالون . ذلك الصوت الذى هيج علينا حملة جديدة من النظرات الشزراء التى يصوبها الينا الزميل صالح جودت . وما لبث ان نهض بدوره واقترب منا قائلا فى لهجة لوم وعتاب :

- يا جماعة ، يا جماعة ! ام كلثوم بتغنى ومدورين الكلام ده ؟

وكان فى نطقه لكلمة « ده » كمية من الازدراء اطارت ايدينا الى البيك أب لكى نسكته ، مع احمرار فى وجوهنا بسبب ماشعرنا به من مدى فساد ذوقنا الذى جعلنا نهمل ام كلثوم فى سبيل تلك الضجة السيمفونية .

(١٧)

نور الكهرباء وظلال الليل على ظهر السفينة جذبا قلم جمال كامل الى ورقته وجلس بالقرب منى لكى يحولنى الى صورة . نظرة منه كالسهم الى وجهى ثم خط فى ورقته ، ونظرة اخرى ثم خط ، احس كأنه « يقشط » اللحم من وجهى ويلصقه على الورقة ! فتذكرت البنت البيضاء وعذرتها ، اذ احسست بوجهى انا الآخر مرة يحمر ومرة يبيض ، وعرق ساقع بلل جبينى ، خاصة وان المنظر اعجب ركاب السفينة كلها فاجتمعوا حولنا يتفرجون ، فى عيونهم اعجاب واضح بالصورة وانكار اوضح لموضوعها ! اليس حراما ان يضيع الفنان المبدع كلا من وقته ورصاص قلمه - دعك من الورقة - فى رسم صورة لوجه العبد لله ؟

لكنهم يقولون ذلك بالطبع لانهم لم يرونى بغير لحية طويلة . فسامحهم الله حيث انهم لايعرفون ماذا يفعلون . وبكل ماعندى من

امكانيات البرود واصلت جلسة الموديل امام جمال كامل ، بل اننى لم انس فى بعض اللحظات - وانا اتنحنح فى كبرياء - ان ارسم فى عينى الناظرة الى ظلام البحر نظرة فلسفية حالمة .

(١٨)

الساعة التاسعة وناقوس كمال عمار يدق - معذرة ناقوس العشاء ، فنهض الجميع للأكل الا انا ، وهو ما يثبت اننى انا الآخر اعتبر فى بعض النواحى - وخاصة ناحية هذا العشاء المبكر الذى يحاول نظام السفينة ان يرغمنى عليه - كائنا من كوكب آخر . كل الناس يجوعون فى الساعة التاسعة الا انا ، منذ عشرين عاما على الاقل لم أجع قبل منتصف الليل . ولذلك لن اقوم للطعام ، ولن اعرض نفسى لما قاسيته بالامس عندما ارغمنى الرفاق على ان اخضع معهم لحكاية العشاء فى الساعة التاسعة .

اذ جلست الى المائدة وابتلعت محتويات ملعقة من الشوربة فاحسست للفور بكركرة غريبة فى جوفى ، وخيل الى اننى اسمع صوت معدتى تقول لكبدى فى دهشة :

- هى ساعتك كام ؟

- اظن تسعة .

هكذا اجابتها الكبد وهى تتثاءب ، فسمعت صوت يد المعدة وهى تضرب على صدرها قائلة :

- ياندامتى ! آمال ايه الشوربة اللى نازلة فى دى ؟ !

- شوربة ؟ شوربة ايه ؟

- شم !

فأحسست بالكبد تتشمم الجو حولها توطئة لان تقول :

- ده صحيح ! الراجل ده اتجنن ولا ايه ؟ !

وبابتلاعى اول قطعة من اللحم زاد ما فى جوفى من الهرج والمرج ، وصرخة يائسة من معدتى وهى تقول :

- دى موش بس شوربة ، دى لحمة كمان !



خد روح ياد اسطاه لنا فرخة والا فرخة ونص

- شوربة ولحمة الساعة تسعة ؟!
- ده بكرة يعشينا ثمانية
- ويمكن يعشينا سبعة .
- ويمكن ستة .

ومع اول ملعقة من الارز صرخت المعدة قائلة :
- ابقى بنت ستين كلب ان كنت اهضم !
وجارتها الكبد قائلة :
- وانا ابقى بنت ستين اوح ان ساعدتك !
وحتى القولون تدخل قائلا :
- وانا ابقى ابن ستين ..... ان استلمت منكم الاكل !
وخيل الى اننى اسمعهم يهتفون - كطلبة زمان - قائلين يحيا تضامن الأعضاء ! والناس ياكلون حولى ويستمتعون . لا يشعرون

شىء مما يجرى فى جوفى - بالثورة التى نشبت فجاة على السفينة عايدة !

وغادرت المطعم وانا أشعر بما لابد ان يشعر به كل نعمان ابتلع خنزيرا ، ذلك الشعور الذى لازمنى طوال الليل ، والى ساعة صحوى فى الصباح على صوت ارتطام راس صبرى بسرير بهجت

ومن ليلتها وكمال عمار ياكل نصيبى فى العشاء ، ولذلك لا أدرى لماذا يخيل الى كلما رأيت كمال يخرج من المطعم ان السفينة - من ثقل عشوته - قد غطست فى الماء اكثر من قبل !

(١٩)

السفينة تمخر كما يقولون عباب البحر الاحمر ، وعلى سطحها تناثرنا نملأ صدورنا من هواء البحر المنعش ، وخليط من اصوات الموج وزهر الطاولة ، وتهليل يأتى من بعيد وقد نجح صبرى موسى بعد صبر ايام فى ان يصيد بساريابة . ما افلحت هذه الأصوات بالطبع فى ايقاظ الرجل النائم ، ولا صوت فيروز المنبعث من بيك اب بهجت ، والرجل الجميل يستمع الى الالحان من بعيد واسمعه يقول بابتسامته اللزجة :

- مبسوطة يافيروز عشان باسمعك ؟!

ونظرة استغراب صوبناها - جمال كامل وانا - الى محمد صبرى الذى يقبل علينا من بعيد وهو يبتسم ، لا أشك ان شيئا غريبا قد حل بمنظره . شيئ غير تلك الكدمة التى فى راسه من كثرة ارتطامه بسرير بهجت ، وهو لذلك يبتسم ، لعلمه باننا نتلمس فيه هذا الشيء الغريب .. وبينما يبتسم يتحسس لحيته التى مالبثنا ان اكتشفنا انها السبب ، لحيته المحلوقة الناعمة مثل صلعته . عملها صبرى وخاننا . حلق لحيته وخرق المعاهدة الثلاثية المبرمة بيننا !

فتبادلت وجمال نظرة نتحاور بها عن الاجراءات التى يجب ان نواجه بها تلك الخيانة ، ونظرنا فى تردد نحو البحر الذى تمخر السفينة عبابه . ثم ذكرنا ان اليوم عيد ميلاد صبرى فقلنا لنفسنا

بلاش . ومتحمسا لحيتى الشائكة التفت الى فتاة تقف بالقرب منى وقلت لها :

- يامدموازيل .. تسمحى لى أسالك سؤال بس تجاوبينى بصراحة ؟

فنظرت الى فى ريبة قائلة :

- اتفضل .

- شكلى وحش قوى وانا لحيتى كده ؟

فاستعرضتنى فى ازدراء وقالت :

- والله ماشفتكش من غيرها عشان احكم !

وتركتنى ومضت ، وسرعان ما كنا نجرى - جمال وانا - الى امواس الحلاقة .

(٢٠)

السفينة واقفة من جديد امام الفنار الذى ربما كان رقم عشرين ، كأن البحر الاحمر شارع وهذه الفنارات اشارات المرور ، وكانى به مجموعة من الفنارات حولها بحر ! ومع ذلك لم تنفع كل هذه الفنارات فى منع كافة الاخطار ، بدليل تلك السفينة التى مررنا بها « موحلة » فى وسط مجموعة من الصخور المرجانية ، والتى علمنا انهم سيتركونها هناك الى الابد بسبب أن نفقات انتشالها اكبر بكثير من ثمن انقاضها . فوالله - قلت لبهجت - لأتصلن بمصلحة الموانىء والمنائر بمجرد عودتى لكى افاوضهم فى شانها .

- ليه .. ح تشتريها ؟

- لا .. يمكن يأجروها لى مفروشة !

فلا شك أن سفينة ظريفة كهذه السفينة - هذا القصر المشيد فى وسط البحر - تكون أجمل مكان يقضى فيه الرجل عطلة الويك اند مع هذه الجماعة او تلك .

ولما كان الشىء بالشىء يُذكر فقد قلت لصبرى وانا اقف بجانب

سور السفينة :

- تسمح تصورنى والفنارة جنبى ؟

- ليه ؟..

- عشان مراتى تتأكد انى فى البحر الاحمر !

فربما يكون قد خطر لها - وانا لا ادرى - اننى واحد من اولئك الازواج الاوغاد الذين يقولون لزوجاتهم انهم فى البحر الاحمر وهم فى بحر آخر ، يعملوها والله .

(٢١)

السفينة تمخر كما يقولون عباب البحر متجهة الى الغردقة . لم نتوقف يا خسارة عند سفاجة مع اننى كنت قد اعددت نكتة خاصة بها . كنت انوى أن انتظر من بهجت اول هفوة او سقطة لكى اقول له :

- اهى دى سفاجة منك !

وبمراجعتى لهذه النكتة اشكر الحظ الذى لم يوقفنا عند سفاجة .

(٢٢)

من السفينة الراسية امام الغردقة انزل زورق تكدسنا فيه حتى الشاطىء ، ثم تكدسنا فى اوتوبيس سياحى يحملنا وسط آبار البترول الى الفندق الكبير بالغردقة . ولا هيلتون والله ذلك الفندق الفاخر ، واجنحة الكبائن الملحقة به على شاطىء البحر . والبحر اخضر بلون الفيروز وعينى قطتى بوسى ، وتلال بعيدة صفراء تلمع فى ضوء الشمس الساطعة - اسطع شمس من اصفى سماء فوق اخضر ماء .

وتعال معى - اجرى بسرعة ! - نحو ذلك الصف الطويل من المظلات المرصوصة على البلاج . انظر هناك الى ذلك البيكينى ، على ذلك الجسم الرشيق الابيض للسيدة الالمانية .. اوليست بذمتك تحفة أثرية نادرة جديرة بأن تعرض مع سائر التحف المستوردة فى فترينة ها - قصدى أ - نو ؟!

فصوب اليها كل ذى عدسة عدسته ، وطرقعت الكاميرات حولها وهى تنظر فى غير استغراب - ما الغرابة فى أن يصور الرجال سيدة جميلة ؟ بل انها وقفت مقصوعة وهى تقبض على عصا المظلة بيدها اليمنى وبيدها اليسرى سوت شعرها الذى تعابثه رياح البحر الرذيلة . واظرف من ذلك أن بجانبها يجلس رجل ربما كان اخاها او زوجها ، بغير اكتراث يرقب المنظر ويبتسم ، بسمة ارية سمحة تشوبها لمسة زهو بسبب افتتانه لتلك التحفة العارية .

فوالله لولا أن الحجرة فى ذلك الفندق بثمانية جنيهات فى الليلة لتخلفت عن العودة مع الرفاق ، ولقضيت هناك شهرا على الاقل ارسل فيه مقالاتى بالبريد - لذا قضيت طبعا اكتب مقالات ..

وبانتهاء التصوير تهادت نحو الماء الاخضر ، على ايقاع قدميها وجدتنى اتحول من ناثر الى شاعر ، انطقتنى المفاتن بهذه الابيات التى احب أن اعرف رايك فيها :

يا لابسة بيكينى
كورقة توت
تعالى حاكينى
لحظة واموت !
ماشية ؟

وهى غير القصيدة التى قراتها فى عينى كمال عمار وهو يتامل السيدة مثلى ، سائل اللعاب كانه سمع الجونج ! فلو انه تكلم فيها قصيدة - تلك التحفة التى تخوض الماء الاخضر - لقال شيئا من هذا القبيل :

رشيقة هيفاء
ارية حسناء
دجاجة بيضاء
وهذا الماء
ملوخية خضراء !

هذا والرجل الجميل يرقبنا فى افتتاننا بالارية فترتسم على

شفتيه بسمة سخرية وكأنه يقول :

- أصلهم ما شافونيش أنا بالمايوه !

(٢٣)

الليلة عيد ميلاد محمد صبرى ، كل سنة وانت طيب يا صبرى . وفيروز تغنى له لحنا راقصا اثبت لنا أن بهجت ليس رساما فحسب ، وانما رقاص ايضا ! على نغمة الديكة يرقص وكذلك على واحدة ونص ! فيا بخته على هذا الازدواج المهنى ، وعلى اطمئنانه اذا ما « رفدوه » بسبب أو باخر من دار الهلال - على مستقبله فى عمر خيام الزمالك !

وسونيا يس رأت ان تشارك فى الاحتفال ، بمعزوفة لبيتهوفن على البيانو العتيق الذى ماكان لينطقه غير اصابعها السحرية . وناظرا اليها رجوت لها عندما تتزوج الا يكون الزواج مقبرة لتلك الموهبة ، كما يحدث للكثير من الموهوبات .. تكون داهية لو انها بعد عشر سنوات من الزواج - فى وسط ثلاثة اطفال - ترى زوجها يدير اسطوانة لبيتهوفن فتقول له فى تأفف :

- يختى بلا وجع دماغ .. سمعنا حاجة لعبد الحليم حافظ !

(٢٤)

الوقت قبيل الغداء والرجل النائم مازال نائما ، وكمال عمار مرهف الاذنين لكيلا يضيع عليه وسط انغام فيروز - صوت الجونج . فلو ان هذا الشاب تحول الى موسيقى لكان اول موسيقى يلحن كونشرتو كاملا للجونج والاوركستر ، او لفتحنا الراديو فسمعنا المذيع يقول :

- والآن سيداتى نستمع الى كمال عمار فى تقاسيم على الجونج !

وهواء البحر الاحمر اطار على جبين احدى الراكبات شعرا حريريا ، هناك حيث وقفت مستندة الى سور السفينة قائلة يصوا لى . وقد كان ليطير فستانها ايضا لولا انها لا تلبس الفستان ، انظر الى ذلك البنطلون الهيلانكا الاحمر وقل معى اوه لالا !



لكننى بالطبع لا يجوز أن أطيل البحلقة الى ذلك المنظر لأننى فى مجتمع محترم ، مع أنه والله ـ المنظر لا المجتمع ـ جميل جدا . فلأنظر الى البحر ما شاء لى النظر قائلا الله ! ولأنظر الى الجبال والى السماء والى القمر قائلا الله ! كل شيء يجوز لى أن أبحلق فيه وأقول الله الا منظر الجمال البشرى ، هو وحده الذى يجب أن أراه فأقول استغفر الله ! فهو بحر كبير ذلك الذى يفصلنا عما رأيته فى الغردقة من التساهل الآرى . ولأغض النظر بسرعة وقد تحركت الأنثى ومرت امامى ، فى جراءة فسيولوجية رائعة تهتز مبتعدة عنى ، قاصدة الى حيث لا يعلم الا الله !

والرجل الجميل يرقب نظراتى فلا يلبث أن يضع ساقا على ساق وأكاد أسمعه يقول فى كبرياء :

ـ طب ما أنا بتطلونى من أنو !

(٢٥)

السفينة تمخر كما يقولون عباب البحر حتى وصلنا الى جزيرة اسمها على ما أذكر « برنيس » ، جنوبى أسوان بعدة كيلو مترات فى تلك الجزيرة كان مفروضا أن نستحم بدلا من أن نكتفى كما عملنا فى الغردقة بالفرجة . فأنزل من السفينة لنش تكدسنا فيه من جديد حتى الشاطىء ، وفيه دار حديث عن طبيعة البحر فى هذه البقعة النائية المهجورة ، وعن الكائنات البحرية التى تقطنه ، اذ قال هبة عنايت ـ استنادا الى خبرة سابقة بالبحر الأحمر ـ انها تتألف من عدة أنواع هى الآتية : ـ اللى ما يعض يقرص ، واللى ما يقرص يلدغ ، والى ما يلدغ يلبد ، واللى ما يلبد يلوش !

اى أننى بعد نصف ساعة من الاستحمام فى هذا البحر يجب أن يكون فى انتظارى على الشاطىء عندما أخرج ـ اذا خرجت ـ ثلاثة رجال مزودون بالأدوات المناسبة للموقف .. الأول يحمل فرشاة لكي ينفض بها ما يراه من كائنات بحرية تتمشى على جسمى ، والثانى يمسك ملقاطا ينتزع به الكائنات الأخرى التى لبدت فى جلدى ، والثالث يحمل لفة قطن وزجاجة ميكروكروم لكى

يطهر الجراح التى تنتشر فى جسمى بسبب ما عضنى وما قرصنى وما « لاشنى » من تلك الكائنات .

وجدير بى بالطبع بعد أن أعود الى القاهرة ان امر علي طبيب الأنف والأذن لكى يستخرج ما ربما يكون قد تسرب الى الأعضاء المذكورة من كائنات البحر الاحمر .

صورة أزعجتنى بعض الشىء وانا اطلع وانزل مع حركة اللنش فوق الأمواج ، ذلك اللنش الذى مالبث أن وصل الى الجزيرة ووقف على بعد عدة أمتار من الشاطىء .

- اتفضلوا انزلوا ، الميه موش غويطة ..

هكذا قال لنا البحار المرافق فصدقناه وقفزنا من اللنش ، وهى اللحظة التى تبينافيها مدي اختلاف الراى فى صفة العمق بين الرجل البحرى والرجل الآخر البرى . اذ قفزنا وفقا لأمر البحار فوجدنا انفسنا نغوص فى الماء - رجاء النقاش وانا - الى قرب العنق ، والفرق الوحيد بيننا فى هذه المحنة اننى كنت البس المايوه فى حين كان هو يلبس القميص والبنطلون ! غير انه لم يسمح لهذه المفاجاة بأن تفقده حسن تصرفه ، وبسرعة - وقد يئس من انقاذ ثيابه من البلل - رفع فوق راسه الكتاب الذى كان قد احضره معه ليواصل قراءته . وهذا هو السبب الذى جعل بهجت يقول له :

- كان حقك تشترى من الكتاب ده نسخة بلاستيك !

سرب كبير من الطيور البحرية ذات الأجنحة الطويلة افزعه وصولنا فطار عن أرض الجزيرة وهو يقول كاك . ومتذكرا كلام هبة عن كائنات البحر الاحمر سرت على أطراف اصابعى مخافة ان أعض واقرص ، وفعلا رايت على الرمال الصفراء الناعمة عدة محارات تجرى بسرعة وقد افزعها مقدمى ، وتلوذ بجحور فى الارض أعدتها لزوم هذه الطوارىء . لكنها كانت قليلة بدرجة مطمئنة ، وهى على اى حال تخاف منى - الحمد لله - اكثر مما اخاف منها .

فرفعت عينى عن الارض وارسلتهما تستعرضان الجزيرة ،

كاننى والله فى جزيرة التفاحة والجمجمة . الرقعة المستديرة الصفراء التى تحيط بالبحر الاحمر ، ورياح نقية تملأ صدرى - انقى رياح شممتها فى حياتى . وصوت نفيشة الماء على الرمال ، وهمساته البعيدة بين شعب المرجان ، والخضرة التى تتحول الى زرقة عند الافق البعيد ، من جديد احسست بالدموع تتصاعد الى عينى من شدة التاثر بهذه السيمفونية البحرية النادرة . فأين انت يازازا - هكذا هتفت ، اين انت بغير كرشة او الحاج طلبة ؟ وأين شجرة التفاح التى تمددت تحتها ذات صباح ، وبيدك الصغيرة البيضاء سويت على صدرك قشرة تفاح حلزونية حمراء ؟ ..

(٣٦)

سعيدا بين احضان المياه الخضراء الدافئة ورمال تنزلق تحت قدمى وربما كانت احد الكائنات الهلامية التى تقطن قاع البحر - ومن يهمه ؟ ومنظار مائى قدمه الى شاب لطيف وطلب منى أن البسه وانظر به تحت الماء بجانب تلك الصخرة القريبة . فلبسته ونظرت ويا سبحان الله على ما رايت من اسماك حمراء وخضراء وفزدقى ، بعيون براقة تحملق نحوى وهى تنزلق فى الماء ، تحملق نحوى ولا ترانى ، ليس ثمة فكرة عندها عن الاف الاميال التى قطعتها من القاهرة الى هذا لكى اراها . فهو نوع من الانفصال الغريب بين مختلف الكائنات الحية . ذلك الانفصال الذى لايمنع وجود الاتصال الكهربائى الشامل وفقا للنظرية التى ساحاول ذات يوم ان اخذ اجازة لاثباتها .

وفى مياه الشاطىء الضحلة جلسنا ، ستة منا ذابت ارواحهم فى المياه الخضراء ، بهجت وجمال كامل ومحمد صبرى وعبدالله الطوخى وهبة عنايت وانا . وزجاجة من اللبن المبستر كان بهجت قد احضرها معه لزوم التغذية الاضافية فى هذه المنطقة الوعرة ، جرع منها جرعة ثم قدمها الى فجرعت ، توطئة لان اقدمها الى جارى ليجرع . ثم عن لنا ان نختبر بها صحة ما درسناه فى معمل الطبيعة عن قوانين الطفو والكثافة وما الى ذلك ، اذ احكمنا سدها

بالقلة ووضعناها فى الماء فنامت على جنبها وكادت تغرق . فشربنا منها قرابة نصفها ووضعناها فى الماء من جديد . رأيناها تعتدل وتستقيم وتقف فى الماء عمودية متوازنة . مع حركة الموج اللطيف تتراقص وتتناقل بيننا . كلما رست أمام رجل منا نزع عنها القلة وجرع . فو الله ماشربت فى حياتى لبنا احلى واصفى من هذا اللبن . ولعل اللبن من الأشياء التى لاتحلو الا راقصة على موجة خضراء . فذكرنى عند عودتى ان اعاود هذه التجربة وانا جالس فى البانيو .

(٢٧)

السفينة تمخر كما يقولون عباب البحر متجهة الى الشمال وهدفها ميناء الطور ثم ميناء السويس حيث تنتهى الرحلة . وبين النوم واليقظة ساورنى شعور غريب بأن السرير لايهتز ولا الحجرة تتأرجح . اتكون السفينة قد اشتبكت ـ كالسفينة اياها ـ فى شعبة من صخور الارجان ؟

كلا هى لم تشتبك . بل انها ليست سفينة أصلا . وانما حجرة نومى فى المنزل العامر الذى بت فيه بعد انتهاء الرحلة ليلتى . انا الآن على اليابسة لا على الماء . رحلة وانتهت ولم تعد الا ذكرى فى الكترونات المخ . لن اصحو بعد اليوم على صوت ارتطام صلعة صبرى بسرير بهجت . ولن ارى رجاء النقاش فى الماء بالبنطلون . لا جونج بعد اليوم ولا وقفة مفاجئة عند فنار . ولا انش يعلو بى ويهبط ولا كائنات تقرص وتلبد . ولا رجل نائم ولا آخر جميل . ولا صور ترسم لى ولا أصابع سحرية على البيانو العتيق . ولا بيكينى ولا هيلاسنا . ولا عاصفة تهب ولا رجال يتقيأون . ولا لحى تطلق ولا زجاجات لبن تعوم . ولا بقعة خضراء تتلوى بين الامواج قبيل صيد القرش . انا الآن على اليابسة لا على الماء والقرش الوحيد الذى ساحاول صيده هو القرش الذى اقبضه ثمنا لهذه السطور !

وبهذا تنتهى سكة السفر واعتقد ان الوقت حان لكى اقول لك : حمدا لله على السلامة !

شارع السيقان الموسيقية

بدات علاقتى بالناحية السكسونية من الحياة فى الطائرة التى حملتنى من الكويت الى لندن . لا لمجرد أن محركاتها مصنوعة ـ الطائرة لا الكويت ـ فى مصانع رولز رويس البريطانية . وانما بسبب ذلك الفتى الانجليزى الذى تصادف جلوسه بجانبى . إذ التفت نحوى فى براءة غير متوقعة وقال :

ـ هل أنت انجليزى ؟!

فدهشت بالطبع . ومع الدهشة مزيج متناقض من السرور والاستياء

ـ هل ابدو انجليزيا ؟!

هكذا سألت بزغرة عتاب خفيف فقلب شفته السفلى وقال :

ـ ول !

قالها بتلك اللهجة التى تقول بها انت كلمتك المعروفة : يعنى !

ـ كلا لست انجليزيا . شرحت له . انا مصرى

فلم يزد على قوله اوه . والى الابد سأظل جاهلا للمعنى الحقيقى لهذه الاوه . ورحت اتفكر فى هذه المشكلة الطارئة التى واجهتنى . حكاية أن منظرى من شأنه أن يوحى لبعض الناس بأننى انجليزى حتى وان كان اولئك الناس من الانجليز . نعم انه مما قد يتملق غرور البعض ان يعرف ان شكله خواجاتى . ولكننى من ناحية لست ذلك البعض . خاصة وان هذا الشكل هو آخر ما أطلبه فى لندن . هناك كنت افضل ان ابدو شرقيا صميما . لا لاعتزازى بشرقيتى فحسب . وانما بسبب ما سمعت عن الأثر الطيب الذى طالما تركه سحر الشرق فى نفوس الانجليز لا سيما اذا كانوا انجليزيات . لكننى على أى حال . قلت لنفسى ـ متنهدا ـ لم اسافر الى لندن

لهذا الغرض ، وما أظن أن شهرا من الزمن يمكن أن يسمح لى باستغلال ذلك السحر مهما بلغت درجته ، فأنا فى القاهرة نفسها احتاج الى اكثر من شهر لتاكيد سحرى ، وربما احتجت فى بعض الاحيان الى اكثر من ستة اشهر ، فما بالك وانا مضطر هناك فى لندن الى ترجمة ذلك السحر الى الانجليزية !

وعلى لوحة كهربائية فى الطائرة ومضت كلمات تامرنى بأن اكف عن التدخين واربط الحزام على بطنى لقرب هبوط الطائرة ، فأما عن التدخين فقد سامنى ان امتنع عنه حتى لتلك الفترة الوجيزة ، واما عن ربط الحزام على بطنى فهذا شيء قد تعودت عليه منذ الحرب العالمية الثانية . ولن احاول ان اخفى عنك تلك الرعدة التى اعترت يدى وانا اربط الحزام ، لا لخوفى من فكرة الهبوط فى ذاتها وانما من فكرة الهبوط الى ذلك العالم القريب الذى اعاينه للمرة الاولى

ورجل مهذب فى الجمرك الى جانب انه اصلع سالنى باسما :

- لماذا تزور لندن ؟

وهو سؤال كنت انذرت من قبل بانه سوف يوجه الىّ هناك ، وكذلك سليت نفسى باعداد بعض الاجابات المبتكرة ، راجيا ان أمسح عن روح الموظف المسكين ذلك الملل الذى لابد يعانيه من طول استماعه الى نفس الاجابات الرسمية المكررة . فاليك بعض الامثلة لتلك الردود التى جهزتها :

رد ١ - لكى اتفرج على تغيير الحرس فى بكنجهام !

رد ٢ - لكى اجرب حظى فى قطار جلاسجو !

رد ٣ - لكى ادعو شارة تشرشل الى كاس !

رد ٤ - لكى اطعم الحمام فى ميدان الطرف الاغر !

وغير ذلك من الاجابات التى لا شك فى انها كانت تلفت انظار اللندنيين على الفور ، ولربما دعونى - استنادا اليها - للاشتراك فى برنامج ساعة لقلبك البريطانى . ولكن رهبتى للموقف اطارت كل هذه الاجابات من دماغى ، ولم ازد على قولى اننى فى رحلة سياحية عادية . فكتب الرجل كلمة ما على الورق ثم طردنى بما يشبه

ابتسامة موزعة بينى وبين الزبون الذى ورائى .

وبينما انا ادخن سيجارتى الاخيرة تحت الاغطية الثقيلة فى سرير الفندق .. اذ كان وصولى الى لندن فى جوف الليل ، وجدتنى انا الاخر اوجه الى نفسى نفس السؤال :

- لماذا تزور لندن !

فاصارحك القول باننى رحت فى النوم قبل ن اعثر على جواب يقنعنى !

الفستان والاسترلينى

المدينة بالنسبة لاهلها منازلها ، واما بالنسبة للاغراب مثلى فهى شوارعها . وقبل أن احدثك عن الشارع اللندنى احب ان أحكى لك حكاية صغيرة شاهدتها فى القاهرة قبل سفرى عن بنت صغيرة تسير فى شارع قصر النيل مرتدية مينى جوب متهادية على الرصيف . سارت تلك البنت تتخوطها الابصار ، ما من عنق رجالى او حريمى الا واستدار نحوها وكلمات كثيرة ترددت حولها منها الساخر الى درجة البذاءة ، واكثر من ذكر مصرى تعثر وكاد يسقط لاضطراره فى سبيل مواصلة البحلقة الى أن يسير عدة خطوات بظهره .

هذا هو موقف الشارع القاهرى من المينى جوب ، ذلك الموقف الذى لو تحقق فى لندن لكان معنى ذلك ان تتوقف الحياة هناك توقفا تاما ، الحياة الاجتماعية والاقتصادية وحتى السياسية دعك من توقف حركة المرور ، ولكان فى مقدور جيش اجنبى معاد أن يحتل المدينة وينشيء حكومة جديدة ويعلن الجمهورية بدلا من الملكية ، الشعب الانجليزى مشغول عن كل ذلك بالبحلقة !!

فالشارع اللندنى بالاختصار - او على الاقل كما انطبعت به لاول وهلة هو شارع المينى جوب والسيقان العارية ! الاف من السيقان الطويلة البيضاء الممشوقة العارية تتواثب على الارصفة فى نشاط

انجلو سكسونى قد ، وهى ايقاع جميل مثل ايقاع مفاتيح البيانو البيضاء وهى تتموج تحت اصابع روبنشتين ، او مثل اصابع مدحت عاصم أو سوتيا ورمزى يسى ، ان كنت تفضل التشبيهات المحلية ! .

فتاة واحدة فى لندن لا تظهر فى الطريق بغير الميني جوب ، وكأنه قد أصبح الزى الرسمى لكل انثى دون الثلاثين من العمر ، او دون الاربعين اذا اخذنا فى اعتبارنا قدرة معاهد التجميل العصرية على استبعاد آثار البعد الرابع . وليس يلزم أن تكون لابسة هذا الثوب صبية عذراء ، لو اشترطنا ذلك لما لبسه أحد ، بل يكفى كما قلت ان تكون الانثى فى سن الشباب . والشباب بالطبع لا يتنافى مع ان تكون الانثى زوجة واما ، فما اكثر الامهات اللواتى رأيتهن يدفعن عربات اطفالهن بالميني جوب . ذيل الثوب القصير يهفهف على راس الطفل فى جنته الصغيرة . والجنة كما تعرف تحت اقدام الامهات .

ولقد يقصر الفستان ويقصر ـ صدقنى اننى لا ابالغ ـ حتى يصل الى مستويات تنسيه انه كان فى اى يوم من الأيام عند الركبتين ، وحتى يوشك ان يتحول من ما فوق هذا الى ما تحت ذلك ! ولرب نسمة لندنية عابثة تهب عليه فتعطيك فكرة عن حقائق الحياة ما كنت لتأخذها بغير شهادة من المأذون او من كلية الطب !

واذا لاحظنا ان لندن مدينة سياحية فانت لا ترى السيقان الانجليزية فحسب ، بل الامريكية والفرنسية والايطالية والاسترالية والكندية ، وكافة السيقان الغربية على مستوى حلف الاطلنطى والكومنولث ! كأنك فى معرض دولى للسيقان ، وكأن بنتا ما سوف تنال فى آخر اليوم جائزة او وساما بصفتها صاحبة اجمل ساقين فى المعسكر الغربى !

ولكن الشىء اذا زاد على حده طالما انقلب ـ وأسفاه ـ الى ضده والالفة كما يقول الانجليز انفسهم تولد الاحتقار . فبعد يومين

او ثلاثة من التسكع فى الشارع اللندنى مع أبحلقة لا تلبث أن تفاجأ بتلك الظاهرة الغريبة . انك لم تعد تجد أى نوع من الاثارة فى تلك السيقان . لكأنك والعياذ بالله قد أصبت بمرض ما . أو كأنك طبيب امراض نسائية يكشف على الانثى المائة بعد الألف . أو كأنك ـ لكى يكون التشبيه اسرع الى نفسك ـ تنظر الى ساقى زوجتك الخاصة .

المفاتيح البيضاء صارت مجرد مفاتيح ، ولم تعد تترك فى النفس اكثر من اثر موسيقى مجرد . وهذا شىء تراه فى عيون كافة الرجال فى الشارع اللندنى . انهم قد اكلوا وشبعوا الى درجة التجشؤ وما عادوا يطلبون المزيد . وحتى البنات انفسهن قد نسين فيما يبدو انهن يلبسن زى شىء غريب ، وما اشك فى انهن يتمنين العودة الى الفستان الطويل المدفىء لولا خوفهن من تهمة التخلف عن الموضة .. ولعل البنت الانجليزية لا تتمسك بهذا الفستان الا لاعتبارات اقتصادية بحتة . كأن الفستان كان لازما له ان ينكمش لكى يتمشى مع انكماش الاسترلينى . ويرتفع لكى يلاحق ارتفاع الاسعار .

ذلك هو الشارع البريطانى وفقا لانطباعى الاول به ، وهو ما لاينفى أن فى ذلك الشارع مئات من الظواهر الاخرى الطريفة التى أرجو عندما اخذ نفسى أن احدثك عنها شيئا فشيئا .

صبرك على قليلا ومعذرة حتى أمسح زجاج نظارتى .

في جحيم من القبل

لم افهم حرفا واحدا تقريبا من الحوار الدائر بين ذلك الشاب اللندني وفتاته حيث جلسا قبالتي في المترو. لا كان يجب أن احضر الى لندن لكي اكتشف ذلك الفرق الرهيب بين اللغة الانجليزية المقروءة والأخرى المسموعة. فالانجليز فيما يبدو لا يحبون لغتهم بشدة. وفي علاقتهم بالحروف التي تتألف منها الكلمات يعتقدون انها قد صنعت لتؤكل لا لتنطق. أضف الى ذلك تلك الثروة من التعبيرات المفرطة في عاميتها، بحيث انه لا يلزمك لفهمها أن تكون انجليزيا فحسب بل وان تكون جاهلا أيضا.

فلعلهما اشفقا علي من عدم الفهم - ذلك الشاب وفتاته - وقررا أن يتكلما باللغة التي لابد ان افهمها مهما كنت غير انجليزي. اذ طوق الشاب خصر صديقته بذراعه وضمها اليه واطبق بشفتيه على شفتيها وهات يابوس.

أصارحك القول بأنني لم اصدق عيني في أول الأمر. ولذلك أخرجت منديلا أمسح به نظارتي قبل أن القي نظرة ثانية.

وتلك النظرة الجديدة اكدت لي نفس الشيء وأنه ليس من شك في أن هذا الولد يقبل هذه البنت، وأنه اذا كانت بينهما مباراة في عدد القبلات فهي الغالبة طبعا. علنا يمارسان امامي وامام الجميع هذا العمل الذي نسميه في القاهرة بالفعل الفاضح ونعاقب عليه بالحبس مع الشغل. تلك العقوبة التي لا اظن انها سوف تطبق بالنسبة لعاشقين من هذا النوع الجرىء. فلكي تطبق عليهما يجب أن يؤخذا أولا الى القسم ثم الى المحكمة، وهو ما يستبعد حدوثه بسبب انهما سيؤخذان قبل ذلك الظن الى المستشفى. وهذا اذا

لم يموتا في الطريق اليه متأثرين بمئات الجراح التي اصابتهما من عشرات الأيدي التقية الطاهرة.

لذلك رحت التفت حولي الى وجوه الركاب لكي أعرف وقع الأمر عليهم، ولكي أرى ما هي الاجراءات التي يزمعون اتخاذها وفقا للطريقة البريطانية. فوالله بالحق - والله - ما طرفت لواحد منهم عين واهتزت في دماغه شعرة. كأنما هذا الشاب لا يقبل الفتاة وانما يكلمها في السياسة مع تأييده التام للحكومة لا المعارضة. لا احد في العربة كلها فهذه الأمر سواي. الأمر الذي جعلني انزع بصري عنهما بسرعة واشيح بوجهي - لاحظ احمراره! - مخافة أن تطول حملقتي الى القبلة فأكون أنا وفقا للتقاليد المحلية مرتكبا جريمة الفعل الفاضح. وبانتهاء تلك القبلة - ٥٠ ثانية - عادا يدردشان وكأنه شيئا لم يكن. نحوا من دقيقة كانت كافية فيما يبدو لفوران العاطفة من جديد فاذا بهما مرة أخرى يتلاحمان وهات يابوس.

وذات صباح اردت أن ادخل كشك التليفون فوجدته مشغولا، لا بشخص يتكلم في التليفون وانما بشاب وفتاة في حالة عناق لندني عنيف. على اطراف اصابعها تشب المضروبة لكي تغمر وجه صاحبها بالقبلات. كارهة أن تترك جزءا من وجهه بغير أثر من شفتيها. والكشك لعلمك ذو جدران زجاجية لا تحجب شيئا، أي انهما لم يلجآ اليه للاختباء وانما لما وجدا فيه من ملامح الديكور الذي يجعل منهما اشبه بصورة في برواز.

فوقفت انظر في ساعتي وانتظر أن يرهقا ويخرجا. ولكنني تبينت بعد نحو من خمس دقائق أن الأمر سيطول فانصرفت الى كشك آخر. فلو انني اجيد الكتابة بالانجليزية لكتبت رسالة الى التايمز اقترح فيها معاملة القبلة في كشك التليفون البريطاني مثلما نعامل نحن في القاهرة مكالماتنا التليفونية، وذلك بتعليق كلمة تقول مدة القبلة لا تزيد على ثلاث دقائق.

وعلى السلم المتحرك المؤدى لانفاق المترو رايت فتاة تضم اليها فى اعزاز شديد صديقا ذا لحية مرسلة يحسده عليها القساوسة ولانها كانت تقف على درجة من السلم اعلى منه راى الوغد أن يريح على صدرها كلا من راسه ولحيته مثل طفل صغير ، والبنت تتخللها باصابعها كأنما تبحث عن شىء فيها .

وفى الاتوبيس وعلى الارصفة المزدحمة وفى كل مكان ، طول الوقت تطرقع حولى تلك القبلات اللندنية ، وما من احد يستنكرها ويكترث بأمرها سواى . فبدأت أخذ عليها بل واحاول عتلهم ان اباركها ، واجد انه من السخف أن اكون انا الفيكتورى الوحيد فى عصر البزابيت ! بل اننى بدأت أخجل من نفسى ازاء هذه المظاهرات التقليدية . ماشى كده فى الطريق العام دون أن أقبل أحدا . وتجسم هذا الكسوف ذات ليلة وانا جالس فى أحد المحلات وسط عدة أزواج من العشاق الذين يلتهمون بعضهم بعضا . فنظرت فى استنجاد الى أنثى تجلس وحدها بالقرب منى وبالطبع سقطت نظرتى ميتة على ارض من الجفاء الصخرى البارد .

والكهول أيضا قد سرت اليهم عدوى تلك القبلات ، كرهوا فى اغلب الظن أن يظهروا امام الناس اقل اقبالا على الحياة من ابنائهم . اكثر من كهل رايته يضم زوجته فى الاتوبيس ويقبلها ، ليوهمها - أو ليتوهم الناس لا أدرى - بأن نار حبهما احمى من ان تطفئها رياح الزمن . وطفل لواحد من هؤلاء الكهول راى هذا المنظر بين ابيه فهب من مقعده وانطلق الى مكان الحادث بالسرعة الاوديبية المناسبة ، عاداً شفتيه نحو السيدة يطلب نصيبه من الوليمة . ولقد سألت صديقا مقيما هنا عن السبب فى هذه العواطف الشرعية الزائدة فقال انها لا تزيد على كونها نوعا من الرشوة يقدمها الرجل الانجليزى لزوجته وهما فى الطريق الى المنزل عقب السهرة . أو هى نوع من الساندويتشات العاطفية التى يطعمها اياها فى الطريق حتى اذا ما ضمهما المنزل لم تطلب العشاء .

وهى روتينية جدا تلك القبلات الى درجة اننى رايت شابا - شابا لاكهل - ينزع فمه عن فم صديقته لكى يتثاءب ثم يعاود القبلة من جديد .

والغريب فى الامر أن شيئا من الشعور بالذنب لا يبدو على وجوه مرتكبى تلك القبلات ، لانهم لا يشعرون - كما اشعر انا الشرقى - انهم ، يرتكبونها ، فى راحة تامة يتبادلونها ويعلمون ان المجتمع سوف يباركها ، وانه قد يسخر منهم لو راهم مضربين عنها . القبلة البشرية فى المجتمع الاوربى قد فقدت كل ما يحيط بها فى الاماكن الاخرى من شحنات نفسية وأخلاقية مفرطة . وصارت مجرد وظيفة بيولوجية مثل تناول الطعام .

فاذا لاحظنا أن معظم اولئك الشبان والشابات اصغر سنا من أن يكونوا أزواجا او حتى على وش جواز فيبدو أن الجنس كله - وما المقبلة الا رمز له - قد صار هو الاخر مجرد ظاهرة بيولوجية لادخل لها بالاخلاق . ولعل المجتمع الاوروبى قد قال لنفسه أن هذه الاشياء سوف تحدث مهما حاول منعها ، فلماذا لا نتركها تدور علنا وفى الهواء الطلق .

وسواء كان هذا المنطق سليما او غير سليم بينه وبين المسيحية التى تدين بها اوروبا . فالطهارة التامة نقطة اساسية فى تعاليم المسيحية التى توشك - فى بعض المذاهب - الا تحتمل الجنس الا بوصفه شرا لابد منه لبقاء النوع ، تماما مثل الاخراج ، الفسيولوجى لا السينمائى ! ، الذى هو شر لابد منه لبقاء الفرد !

فيبدو أن اوروبا المسيحية السابقة شىء غير اوروبا الصناعية الحديثة ، وانه بعد تلك القرون الطويلة التى اضاعتها الاولى فى محاولة الغاء الجنس كظاهرة ، رات الثانية أن تستعيض عن ذلك بالغاء الجنس كمشكلة . ولعل الصناعة قد خلقت لها من المشاكل الصناعية الكبيرة ما جعل لزاما عليها أن تبدأ بالغاء تلك المشكلة الطبيعة الصغيرة .

فن الشحاذة فى لندن

انغام لا تخلو من الطا ب تنبعث من ثنائى الماندولين والاكورديون فى شارع اوكسفورد ، على ايقاع من رنين البنسات البرونزية المتساقطة من ايدى الناس فى تلك الزكيبة الصغيرة العتيقة ، المعلقة فى رقبة الماندولين الذى يحتضنه ذلك الانجليزى العجوز ذو الساق المقطوعة !

كان يستطيع بالطبع ان يسترخى فى منزله باسطا امامه ساقه الواحدة ومعتمدا على الاعانة التى تصرفها الحكومة للعاطلين ، لكنه فيما يبدو يفضل كسب عيشه فى الهواء الطلق وبلمسة من الفن .. فانت فى لندن تستطيع ان تشهد دائما ما يمت تجيد الى جانب الشحاذة فنا آخر .. مثل الرجل الذى تراه كل يوم بجانب المعرض القومى فى ميدان الطرف الاغر ، راكعا على ركبتيه يخط بالطباشير الملون صورا ساذجة يأمل بها ان ينافس سكان المعرض من دافنشى الى فان جوخ ، وكلمة على احد البراويز تقول انه ليس شحاذا .. وان كان لا يمانع فى تقبل بعض الاكراميات تقديرا لفنه !

لكن الانجليز بالطبع لا يعتمدون فى كسب عيشهم على الشحاذة فحسب ، بل هم يلجأون الى العمل ايضا مهما كان نوع العمل .. فعندك على سبيل المثال ذلك الرجل الذى يذرع نفس الرصيف من شارع اكسفورد ، وعلى كل من صدره وظهره اعلان خشبى كبير عن قارئة للكف وكاشفة للغيب اسمها مدام ساندرا .. طول النهار يغدو ويروح وسط الالاف من اهل البلد والسياح ، عاملا كادحا احمر العينين بشدة ، تاركا فى النفس - نفسى انا على الاقل - احساسا غريبا بالمقارنة ، اذ اتساءل لماذا لم ينتهز الرجل لحظة

والرجل الشرقى هنا يحتاج الى كثير من التردد قبل ان يقول ايهما احسن القبلة التى تدور فى النور على سلم المترو ام الاخرى التى تدور فى الظلام تحت سلم العمارة او ايهما احسن ممارسته فى احلام اليقظة ، فى الحجرات المغلقة على صوت مطربة يتمزع من تأوهات الحرمان - حرمان المستمع لا المطربة طبعا !؟

ومهما قال الرجل الشرقى فسوف يبقى الشارع الاوروبى على حاله وسوف يظل يحترج فيه ازيز الموتورات برنين القبلات ! ولن تصدقنى بشأن الرجل الذى اقترب حتى منذ ايام .

- وقد ظننى من اهل البلد - يسألنى اين يوجد شارع كذا ، فاشرت عبر ازواج العشاق على الرصيف قائلا له .

- سيب حضنين وتلت بوسات واحود يمينك !

من لحظات الفراغ لكي يبسط للمدام كفه ويأخذ منها فكرة عن غيبه الخاص .

وشاب تهجم على حجرتي بالفندق ذات صباح ، وبدون لاجمْ ولا دستور توجه الى النافذة فرفع زجاجها وخرج منها !.. ظننت بالطبع انه انسان تعس طرد من عمله او خانته زوجته مع اعز اصدقائه فقرر أن ينتحر مختارا نافذتي بالذات لكي يثير الريب حولي لغرض في نفسه .. لكن الله قدر ولطف وتبينت أنه يريد أن يشتغل لا أن ينتحر ، اذ اكتفى بالتشعلق في النافذة من الخارج مع اخراج خرقة ينظف الزجاج ويلمعه بها ، كارها فيما يبدو أن انظر من خلال الزجاج القاتم فتفوتني احدى التفاصيل الهامة في الشارع اللندني .

وشاب اخر ظن لسبب ما انني احب شرب اللبن في الصباح ، مع انني اكرهه في كل الاوقات ،.. فتعمد أن يصحو كل يوم من النجمة لكي يضع زجاجة منه امام بابي ، لا يمنعه من ذلك أن تكون السماء كما يقول بني جنسه تمطر قططا وكلابا .. وهو يصل دائما في نفس لحظة وصول ذلك الرجل الطيب الاخر الذي علم انني اكره تراكم القمامة امام باب الفندق ، فتردد لحظة ثم تنهد في استسلام واشتغل زبالا .. شأنه في ذلك شأن الرجل الطيب الآخر الذي قرر ان يتولى كنس الشارع ، باحدى يديه يمسك المقشة الطويلة وبالاخرى يمسك البايب ، متفحصا ارض الطريق بدقة محمودة من وراء منظاره الطبي .

وفي نفس الساعة المبكرة يصحو سائق الاوتوبيس مع الكمساري ، وقد تصحو بدلا منه والدته العجوز الطيبة التي قطعت لي التذكرة اكثر من مرة وهي تقاوم السقوط بصعوبة كلما انحرف السائق بالاوتوبيس . وذات يوم تولت قطع تذكرتي أخته لا والدته ، وكانت جميلة جدا الا انها في الوقت نفسه عنيدة جدا ، رفضت رفضا باتا تلك الفكرة التي عرضتها عليها بأن تجلس مكاني واتولى انا قطع التذاكر !

وشاب طويل وسيم يشبه احمد مظهر ، ظننت لحظة دخولي الى الحجرة انه مدير المكتب او وكيله ، ثم تبينت من حمله لفنجان الشاي الخالي انه ليس اكثر من فراش المكتب !.. وفي بدلة أوجه من بدلتي وبوقار شديد خرج من الحجرة لكي يشتري لاحد الموظفين ساندويتشا وعلبة سجائر !.. وبسؤالي عن مرتبه قيل لي انه نحو من ١٥ جنيها لاغير ، في الاسبوع ياحلو لا في الشهر !..

اذا كان التسول يجلب البنسات فالعمل كما ترى يجلب الجنيهات ، وفي لندن كما علمت قلما يقل اجر العامل - حتى الكناس ابو نظارة - عن عشرة او ثمانية جنيهات في الاسبوع .. وهم في مقابل ذلك والحق يقال يعملون بمعنى يعملون ، ثماني ساعات متواصلة لا يستريحون فيها الا نصف ساعة يخطفون فيها لقمة سريعة وفنجان قهوة .

لكن من الانجليز من لا يحبون قبض مرتباتهم بهذه الطريقة ، مفضلين ان يتوصلوا بطرق اخرى الى قبض مرتبي انا !.. بتلك الماكينات المنتشرة في البلد مثل صناديق البوستة ، داعية اياي الى ان اودع في ثقب منها بنسا واحدا فينزل لي من ثقب اخر ستة !.. ولقد نزلت لي فعلا تلك البنسات الستة ، بعد أن أودعت في الثقب اللعين ستين بنسا !

او ببنت حلوة توصلوا الى اقناعها بأن تقف امامي في احد ملاهي سوهو ، متجردة من ثيابها قطعة بعد قطعة حتى تصبح كما ولدتها امها .. كأنما حسبوني ولدي المراهق .. وكأن موضات الميني والميكرو ، قد تركت شيئا من هذا القصور في ثقافتي التشريحية !

لكن منهم من يحب ان يبيعني في مقابل نقودي شيئا حقيقيا يحتاج اليه جسمي باكمله او عضو واحد منه ، من الخارج كبدلة البسها او حذاء ، او من الداخل كدجاجة اكلها او كأس اشربها .. ومن اجل ذلك ارتفع في شارع اوكسفورد محل اسمه سلفردج ، طوله محطة اتوبيس وعرضه محطة ، وخمسة طوابق يلزمك شهر كامل على الاقل من التجوال فيها قبل أن تستطيع أن تقول -

صادقا ـ انك قد ألقيت على كل رايون من رايوناتها نظرة عابرة !..
يهودى طبعا ذلك الخواجة سلفردج ، ومنذ عهد قريب كما سمعت
باع هذا المحل بذلك الرقم الصغير الملموم ، سبعة وخمسين مليونا
من الجنيهات الاسترلينية !

متجر عملاق بجانب عشرات العمالقة المشابهة فى ذلك المتجر
الكبير المسمى لندن .. وبجانب كل عملاق من تلك المتاجر بنك
يحتضنه فى حنان مصرفى مؤثر ، وبجانب كل فرع من فروع تلك
العمالقة ، فرع لكل حى من احياء البلد ،.. فرع للبنك يضمه فى
نفس الحنان !. والبنوك فى معظم الاحيان عالية اكثر من اللازم ،
لكى تتسع من ناحية لكل ما فيها من الفلوس ، ومن ناحية أخرى
لكى تضمن لك الراحة الابدية اذا مارميت نفسك من فوقها فى
لحظة بورصية عصبية !

حفيف البنكنوت فى أيدى الاف السياح الذين يفدون الى لندن
كل يوم من ألف مكان ، وشخللة فى جيبى لكمية من العملة تهيىء
لى اننى من الاغنياء ، وما هى ـ واحسرتاه ! ـ الا بقية الجنيه التى
اودعته فى لحظة تهور فى خزينة سلفردج ! فلأخرج بنسا منها
واستمتع بصوت رنينه على سائر البنسات فى زكيبة الرجل مقطوع
الساق ، وعلى انغام الماندولين ابتعد لكى أعبر الطريق ناسيا
بالطبع أن انظر الى يمينى بدلا من يسارى .. وفرملة حادة لرولز
فاخرة سوداء كادت تدهسنى ، ليس من المستبعد ان تكون سيارة
سلفردج نفسه أو الرجل الذى اشترى منه المحل فالحمد لله اننى
لن ابقى فى لندن فترة تكفى لان اموت قتيلا ، بسبب اولئك الناس
الشواذ الذين يصرون على ان يقودوا سياراتهم ـ بخلاف العالم
كله ـ على يسار الطريق .. وما كان فى مقدورى على اية حال ان
ابقى فى لندن طويلا ، فمن اين احصل على الفلوس اللازمة وانا لا
يهودى ولا اجيد العزف على الماندولين ؟!

مصر فى لندن

مجيدة يا مسلتى حيث تقفين على شاطىء التيمز ، شامخة رغم
الغربة تحكين للناس قصة المجد الذى كان مجدنا ، على شاطىء
النيل منذ اربعين قرنا ، قبل ان ينجح اصحاب التيمز فى كتابة
اسمه او حتى فى مجرد النطق به .. فهى صعبة بعض الشىء ـ
كلمة تيمز ـ على رجل فرغ لتوه من التهام سمكة نيئة صادها بحربة
من الصخر المسنون وغاصت منها شوكة فى لسانه واخرى فى
حلقه البدائى .

يسمونها هناك ابرة كليوبترة ، مدللين بذلك على جهلهم
الفاضح ، او على الاقل على ازدراء العلماء منهم لثقافة العابر
العادى على رصيف فيكتوريا فهى من ناحية لاتمت الى كليوبترة
باية صلة ، اذ بنيت قبل مولد المذكورة بنحو من خمسة عشر
قرنا .. وهى من ناحية أخرى اكبر بكثير جدا عن أن تكون ابرة ،
مهما بالغنا فى تصور الحجم الذى كان لاى من الترزى او الخياطة
الفرعونيين .

بناها تحتمس الثالث فى هليوبوليس عام ١٥٠٠ قبل الميلاد ،
جالسا فى ظلها وفى غفلة من حتشبسوت يحلم بامجاد المستقبل
فى مجدو والنهرين .. وبعد قرنين من الزمان اضاف رمسيس
الثانى الى نقوشها بعض كلمات من عنده .. ذلك التطفل الذى طالما
وقع فى أحسن العائلات حتى ـ أو لا سيما ـ اذا كانت ملكية ..
فلما غزا الاغريق مصر نقلوها من هليوبوليس الى الاسكندرية
التى جعلوها ـ لحبهم للطراوة ـ عاصمة رسمية للبلاد .. وهناك
تحولت من رمز دينى الى مجرد اداة للزينة .

وخلال القرون التالية لا اشك فى انها شعرت بقدر كبير من الوحشة والغربة والارتباك ازاء مالا يبرح يتردد حولها من اصوات جديدة غريبة وكثير منها منكر .. هدير عجلات الرومان وتنهدات كليوبترة بين أحضان أنطونيو على ايقاع من صرير أسنان أوكتافيوس .. ثم صليل سيوف عمرو بن العاص ونداء من فوق مئذنة ممشوقة كالمسلة يقول ان الله اكبر .. ثم سنابك خيل الاتراك والمماليك بريين وبحريين ، الاصوات التى ما لبثت ان خنقت فى فرقعات القنبر الفرنسى الذى نزل على الناس وما كانوا عاينوه من قبل ..

كل ذلك شاهدته مسلتى فى صبر فرعونى تشكر عليه حقا ، غير عالمة ببشيرة الخروج التى تعدها لها اقدارها العابثة .. اذ ولى حكم البلاد بائع سجائر من قوله اسمه محمد على ، وفى لحظة انسجام تركى برم شنبه وقرر اهداءها للشعب البريطانى العزيز ، متوهما رحمه الله انه بذبحه للمماليك فى القلعة ورث كل شىء فى العزبة المصرية حتى مجد تحتمس .

وكان الغرض من الهدية مشاركة الانجليز فى احتفالهم بنلسون ، تمجيدا لانتصاراته البحرية على فرنسا واسبانيا دعك من انتصاره البرى على لورد هاملتون .. وتمجيدا فى الوقت نفسه لانجليزى آخر اسمه سير رالف ابركرومبى .. درس القانون كما يقولون ثم هجره مفضلا عليه شريعة الغاب ، ومات فى ابو قير وهو يطرد من حول المسلة ماتبقى هناك من فلول بونابرت .

ما خطر قط لولى النعم وهو يفشش على الانجليز بالمسلات انهم على وشك تسجيل انتصار آخر لن يرتاح اليه كثيرا ، انتصارهم شخصيا فى حرب المورة وتحطيم اسطوله فى موقعة نفارين ، وهناك ظفرت اسماك البحر الابيض بوجبة اكبر من اللازم من اللحم المصرى المملح بأحلام الباشا الدخاخنى ، الذى اتضح آخر الامر انه لم يكن جنديا من معدن ممتاز !

غير ان صعوبة شحن مثل هذه المسلة الضخمة ، ٣٠٠ طن تقريبا ، كانت سببا فى تأجيل الرحلة حينا من الزمن ، ولم يعمد الانجليز الى تنفيذ العملية الا فى سنة ١٨٧٧ .. اذ صنع لها رجل انجليزى اسمه ارازموس ويلسون اسطوانة ضخمة تحميها من الماء وتسحب فيها من الاسكندرية الى لندن ، تلك الرحلة التى يدل مجرى الاحداث على انه قد صحبتها من آلهة اجدادى الف لعنة ولعنة .. فلابد انهم عقدوا اجتماعا سريعا برئاسة آمون ورع .. ذلك الاجتماع الذى تمخض عن انتداب اله الريح ، شو ، للسفر الى خليج بسكاى ليكون فى انتظار السفينة .. اذ هب هناك من الرياح ما عصف بتلك السفينة وقذف بها على صخور الشاطىء .. وما اشك فى ان ايزيس قد اسهمت فى استثارة غضب الامواج بشىء من دموعها ، وان نقصا فى الفيضان ـ لهذا السبب ـ قد شكا منه المزارعون على شاطىء النيل .

وفى تلك العاصفة مات ستة بحارة من طاقم السفينة وهجرت المسلة فى اسطوانتها على احد الشواطىء المقفرة .. وعام كامل مر قبل ان يعاودوا البحث عنها وينقلوها الى لندن بمعرفة رجل اسمه جون ديكسون ، وهناك اقيمت على شاطىء التيمز غير بعيد من القصر الملكى ، لكى تتمكن الملكة فيكتوريا من رؤيتها كلما خرجت لتمشى رجليها الملكيتين .

من ذلك اليوم صار اسمها ابرة كليوبترة وصارت أحد المعالم السياحية فى مدينة لندن .. وهناك سعيت اليها على شاطىء التيمز ، ومارا بقبلة سياحية عنيفة ولندنى جاحظ العين يحمل لافتة طويلة تقول ان النهاية قد اقتربت .. وصلت اليها ووقفت امامها اتلو صلاة فرعونية صامتة .. وانثى سائحة صعدت السلالم القليلة المؤدية اليها واسندت ظهرها عليها مع التقصع ، باسمه للكاميرا التى يصوبها اليها صديق العائلة .. وسائحات اخريات غرن منها فاقبلن وحذون حذوها .. رافضات ان يعدن الى بلادهن وليس فى ظهورهن اثر من ابرة جدتى .. والجميع يمرون بى ولاينتبهون الى .

غير عالمين ـ الجهلاء ـ أنني الوريث الشرعي لتلك المسلة ولكل ذلك المجد الذي كان فوددت ان اعتلي تلك السلالم واشرع في القاء كلمة تعرفهم بشخصي .. لكنني آثرت ان اؤجل الامر لحين لحظة من التفسخ النفسي تصيبني فجأة في هايد بارك .

وما كنا بالطبع لنفهم شيئا من المكتوب على تلك المسلة لولا العثور على حجر رشيد ، الذي نقل هو الاخر الى لندن لكي يتصدر البهو الفرعوني الكبير بالمتحف البريطاني .. اذ سلبه الانجليز من الفرنسيين عندما هزموهم في « ابو قير » .. بقيادة الوغد سالف الذكر ابر كرومبي ، ولعلهم إن لم يسلبوه لاخذوه مع المسلة بعد حين على سبيل الهدية من الباشا الفنجري .. وكما حولوا المسلة من مسلة الى ابرة حولوا ذلك الحجر من حجر رشيد الى حجر روزيتا .. تعميدا له باسم غربي كي لا يتذكروا انهم سرقوه كلما نطقوا بكلمة رشيد .

لان الهة الفراعنة كانت قد نفضت يدها فيما يبدو من الامر كله ، واجدة انه من السخف الاصلي ان تقوم بكل العمل في حين يجلس احفادها لمجرد الفرجة .. ولذلك امتلأ المتحف البريطاني بتلك المجموعة الهائلة من آثارها ، من الاسورة التي كانت تستخدمها الانثى الفرعونية العادية في تزين معصمها الى رأس هائل من الجرانيت الاحمر لتحتمس الثالث ذات نفسه .. وذراع طولها عدة امتار من تمثال مكسور لرمسيس ، وأسود أمينوفيس رابضة في صمت حزين وسط اعداء ، بعيدة لتراتيل كهنة آمون في كتاب الموتى .

وموتى كثيرون في توابيتهم المزركشة الواقفة مثل صف من الحرس ، وفي صندوق زجاجي كبير ترقد مومياء لبنت مصرية غير معروفة .. بصعوبة وجدت ثغرة اراها منها بين فخذين جريئين في الميكروجوب ، طاردا من دماغي حكمة مبتذلة لابي العتاهية عن الولادة للموت والبناء للخراب .. ولا شك في ان افكارا مماثلة دارت في دماغ ذلك الحشد من السياح وهم ينقلون البصر بين

الميكروجوبات وكفن البنت .. التي لابد قد خطرت ذات يوم في فستان من الكتانْ الشفاف ، سالبة لب اكثر من ذكر مصري ولهان .

حجيبة يا أيتها البنت المحنطة وياحجر رشيد لا روزيتا .. وياذراع رمسيس ويا رأس تحتمس ، ويا مسلتي حيث تقفين تحت امطار لندن حاكية للعالمين عن المجد الذي كان !

الفرق بين جورج وماري

لابد ان شكلي قد بدا غريبا بعض الشيء للانجليز - او على الاصح للشبان منهم - وانا اسير في الطريق العام بشعري الرجعي الحليق . وبتلك الكرافتة المتدلية على صدري بغير مناسبة واضحة خلال فتحة الجاكتة التقليدية . فلعلني ما كنت أجرؤ على السير بتلك الصورة الرسمية لولا أن الكهل الانجليزي ما زال يسير بنفس الصورة الرسمية واكثر . بتلك الجاكتة الرمادية المخططة المحبوكة على جسمه ، والصديري التقليدي ذي العشرين زرارا . والقبعة الهندسية الصغيرة التي يبدو انه يحملها اكثر منه يلبسها فوق شعره الحليق مثل شعري . فالحمد لله أنني لست مضطرا مثله الى أن أقيم الى الابد في لندن ، متحملا تلك الهمسات المرحة التي تدور حولي وانا أضيع دقيقة كاملة في عقد ازرار الصديري ، والبسمات المجانية من ابنائي كلما مروا بقبعتي المضحكة حيث علقتها على الشماعة بجانب باب السكة ، دعك من الضحكات المكتومة وهم يرونني أجري بالمشط في شعري الاشيب الحليق .

لان الشبان الانجليز كما رايتهم لا يمكن ان يكونوا قد زاروا الحلاق منذ اخذوا الابتدائية ، ومنهم من يستبعد أن يكون قد سمع بالحلاق اصلا . اقصر شعر على راس شاب لا يمكن ان يكون قد حلق منذ عهد حكومة المحافظين ، او على الاقل - في الحالات النادرة - منذ دورة برلمانية كاملة .

خناقة كبيرة لابد أنها وقعت ذات يوم بين ذلك الكهل الانجليزي الرسمي وبين ابنائه حين رفضوا الذهاب الى الحلاق ، او حين تظاهروا بأنهم قد ذهبوا اليه ثم عادوا وشعرهم اطول من قبل !

وبجانب الخناقة جدل هادىء - او حاول الاب أن يجعله هادئا - حول الرجولة وطول الشعر ، وهل تتمركز رجولة الشاب في شعره أم تشيع في مختلف انحاء جسمه . كل ذلك وشعر الاولاد لايبرح يطول ، يوما بعد يوم يتهدل على اكتافهم ويلخبط الكهل المسكين بينهم وبين اختهم بربارة . فادرك الرجل انه أضعف من ان يخوض معركة ضد روح العصر كله . وانهمك في جريدته متظاهرا بانه لا يلحظ شيئا غريبا ، وزيادة في التمويه على نفسه لا يرفض بين الحين والحين أن يدفع لهم بضعة شلنات تفي بأجر الحلاق الوهمي ! وحسبه على سبيل العزاء أن خوفه على مستقبل الاولاد كان في غير محله ، وأن شعورهم المتهدلة على أوراق الاسئلة لم تمنعهم كما كان يتوقع من النجاح في الامتحان عاما بعد عام .

وكذلك راض الرجل نفسه على الثورة الكسائية التي أعلنها الاولاد . قائلين انهم في علاقتهم بالملابس لايحبون أن يشتروها بقدر ما يحبون ان يخترعوها ملابس غريبة يصممونها وفقا لاهوائهم ، ولربما مرت فترة من الزمن وهم يلبسونها قبل ان ينجحوا في العثور على اسماء مناسبة لها !

واحد من أصحاب تلك الاختراعات الكسائية جلس امامي انا ذات يوم في المترو . تائه الجسم في شيء أزرق اللون يشبه عفريتة العمال دون ان يكون عفريتة ، وما كنت لاعرف - ازاء شعره الطويل المتهدل - انه واحد لا واحدة الا من آثار الموس في لحيته التي حلقها في الصباح . وعن يمين جلس صديق له يرتدي عفريتة زرقاء مماثلة ، وشعره على العكس منه قصير بدرجة تتنافى بشدة مع روح العصر ، الامر الذي يقطع بانه ينحدر من اسرة من غلاة المحافظين ان لم تكن من المتطهرين .

وفجاة رايت الشاب الاول - طويل الشعر - يمد ذراعه فيحيط بها خصر الاخر قصير الشعر ويشرع في طبع القبلات - صدق او لا تصدق - على خده وشفتيه !

فغمرني من الدهشة والاستنكار كل ما يمكنك أن تتصوره ، حتى بالرغم مما ذكرته من رفع التحريم عن الشذوذ الانجليزى بقرار من هيئة موقرة كالبرلمان . ولم يفارقنى شعور الصدمة الا عندما توقفت القبلات وسمعت الشاب طويل الشعر يخاطب الاخر قائلا له ياماري ! فهو وفقا لهذا الاسم بنت لا ولد ، اللهم الا اذا كان الامر قد وصل به الى درجة اتخاذ ذلك الاسم النسائى . وجولة متأنية منى فى تضاريس جسمه التائهة وراء العفريتة الزرقاء - جولة بصرية طبعا - اقنعتنى بأنها بنت فعلا ، الحقيقة التى تأكدت عندما نطقت البنت الصوت الانثوى العذب .

اى أننى قد اخطأت حين حكمت عليها بالذكورة استنادا الى شعرها القصير ، كما كان يمكن أن اخطىء لو حكمت على صاحبها بالانوثة استنادا الى شعره الطويل . فعلا الشعر قد صار فيصلا للتفرقة بين الجنسين كما ترى لا الثياب ، الامر الذى قد يحدث الكثير من اللبس اذا أمعن شباب العصر فى هذا اللون من التنكر الجنسي . فلربما اتى يوم يتعذر فيه عليك معرفة الولد من البنت ما لم تستوثق من ذلك بالسؤال المباشر ، أو بأن تنتظر - اذا لم تكن هناك معرفة سابقة - حتى يدخل الكائن منهما الى الحمام فتنظر اليه من ثقب الباب !

وسط هذه الكائنات الغريبة لا مناص من أن يشعر التقليدى بالغربة المحيقة وسط اولاده ولعله يقول لنفسه - اذا كان متدينا - انهم علامة من علامات الساعة . لكن هذا الكلام لا يحل المشكلة طبعا ، من ناحية لان معظم الشواهد الفلكية تدل على أن الساعة ما زالت بعيدة بعض الشيء ، ومن ناحية أخرى لانه لايخلو من الغرور الصبيانى ذلك الربط بين الساعة - اية ساعة - وطول شعر الكائن البشرىّ عند قياسه بالمسطرة .

ومن السهل أن تلخص المشكلة بأن تصف اولئك الشبان طوال الشعر بالميوعة أو بالرقاعة ، الامر الذى لو صح لوجب تعليق لافتة

فى مطار لندن تقول للقادمين مرحبا بكم فى عاصمة الرقاعة ، ولوزعت أكثر من نشرة سياحية تقول بارقعاء العالم اجتمعوا فى لندن ! ولكن الامور لا تحل بهذه السهولة ، واذا كنا هنا نصف الشاب طويل الشعر بالرقاعة فذلك لانه لايعبر عن شيء سوى رغبته فى التقليد الاعمى .. اما اذا رأينا جيلا كاملا من الشباب الغربى يرسل شعره فجدير بنا ان نتردد قبل أن نستخدم تلك الكلمات الكبيرة العائمة عن الرقاعة والميوعة والتخنث الى اخر ما فى قاموسنا الاخلاقى . فليسوا رقعاء ولا مخنثين أولئك الالاف من الشبان طوال الشعر الذين عرضوا انفسهم لهراوات البوليس وغازه المسيل للدموع وهم يهاجمون السفارة الامريكية وهيلتون لندن ، ولا اقرانهم الفرنسيون الذين نصبوا المتاريس فى شوارع باريس واحتلوا السوربون فى سبيل قضية يؤمنون بها .

انما هم يريدون ان يقولوا شيئا بتلك الشعور الطويلة وتلك الملابس التى توقع اللبس بين الذكر والانثى . هم يبحثون كما يخيل الى عن مفهوم جديد للرجولة ، كارهين أن تنحصر رجولة الرجل فى شعر يحلقه او صديرى يزرره على صدره تحت جاكتة كئيبة مخططة . ولعلهم كرهوا مفهوم الرجولة التقليدى كله ، وارادوا ان يثبتوا ان شابا طويل الشعر يحتج على حرب فيتنام احسن وأرجل من رجل قصير الشعر يشعلها !

لو اوتوا البلاغة الكافية لاحتجوا بالكلمات ، لكنهم فى زحام المشاعر المتلاطمة المنحشرة فى عنق الزجاجة قنعوا مؤقتا بالاحتجاج بالشعر الطويل والملبس الغريب . هم ينكرون مبادئنا كلها نحن الكهول ، وما شعرنا القصير وثيابنا المهندمة الا رمزا لتلك المبادىء . فلو اننا كنا نطيل شعرنا - نحن ابناء الجيل القديم - لحلقوا رءوسهم زلبطة ، ولو كنا نلبس العفاريت والميكروجيبات للبسوا السموكن شبانا والملس شابات !

هم يحتقروننا ولهم والله عذرهم ، بشعورنا الحليقة ورجولتنا

المزررة ترسلهم الى كافة بقاع الارض ليقتلوا الناس وليموتوا . وشعارات كبيرة ترددها على اسماعهم عن حقوق الانسان بدون تعريف دقيق لذلك الانسان . هل هو الرجل الكادح فى سبيل ساندويتش من الكلاب الساخنة او الرجل البنكير الجالس يحصى نقودا تفوح منهم رائحة الدماء والبارود . ومعابد ندعوهم اليها ليسمعوا صوت السماء ، وما فى سمائنا الا طائفة من الشياطين الذرية تعوى وتخنق ترانيم الملائكة .

فارضنا فى الحقيقة فى حال من الفوضى التى تثير فى النفس كسلا شديدا عن التردد على صالون الحلاقة ، و والله لو عرفت - انا الكهل - انّ شعرى سوف يتهدل لو أرسلته لفعلتها من زمان ! لكننى أعرف أنه سوف يرتفع الى أعلى ويتشابك ويتعقد حتى تصبح رأسى مثل حقل من التين الشوكى ! ويمثل هذا الشعر لن يكون لى نفع كبير فى غير يوم يخطر لزوجتى فيه أن تزحف السقف وتتلفت حولها باحثة عن راس العبد فلا تجد سوى راس العبد له !

ذوات العيون الجريئة

بالصعوبة المناسبة لذكر شرقى مثلى نزعت بصرى عن الثروة التشريحية المنبثقة من جوف الميكروجوب الجالس امامى فى مترو لندن . ذلك الثوب الذى لا اجد شيئا اخذه عليه سوى ما لابد انه سوف يضيعه على العريس من مباهج الاكتشاف فى ليلة الزفاف ! ورفعته - بصرى طبعا - الى وجه الفتاة صاحبة الثوب حيث استقر منه على عينين زرقاوين واسعتين طالعتنى فيهما ذلك الشىء الذى طالما حيرنى كلما نظرت فى عيون بنات الغرب . والذى يمكنك ان تقول - اذا اردت ان تحسم الامر بسرعة - أنه نوع غير متوقع من الجراة والحدة والاقتحام فى الحين الحريفى .

نعم هى جريئة جدا عيون بنات الغرب ، جريئة وصريحة وحرة ، مع رجاء منى للقارىء بالا يشرع فى الشمشمة بأنفه الشرقى وباحثا فى تلك الحرية الجريئة عن اية رائحة للجنس . فلرب نظرة حيية متلصصة فى اعين ناعسة شرقية تثير من ايحاءات الجنس اضعاف ما تثيره تلك النظرات الجريئة فى عيون بنات الغرب . فهى جراة من نوع جراة الرجل فى استطلاع ما حوله من الاشياء وفى تفحصها واطالة النظر الى ما يثير اهتمامه منها ، تلك الجراة التى لا علاقة لها بالجنس من قريب اوبعيد . فلعلك محتاج الى ان تغوص فى اعماق الريف الغربى لكى تعثر على تلك النظرة الشرقية المتلصصة فى عيون البنات ، تحت ظن منهن بأن تلك النظرات العصرية المقتحمة شىء يتنافى مع ادب الانثى أو حتى مع شرفها .

ومن حقيبة يدها اخرجت الفتاة علبة سجائر كنج سايز ، ومن

العلبة اخرجت سيجارة رشقتها ـ عقبال الحبايب ـ بين شفتيها . وسحابة من دخان عاطر غادرت صدرها وتسللت الى صدرى لتداعب الشعب الهوائية الدقيقة فى رئتى ، فلو ان شيئا من ذلك حدث فى ترام القاهرة لربما سرى ذلك الدخان فى نخاعى الشوكى حتى وصل الى اصابع قدمى ، متسببا فى صدمة غير متعمدة من حذائى لحذاء السيدة تحت الكراسى ، على سبيل رد الفعل المنعكس الناشىء عن فكرة خاصة بشأن الأنثى التى تتعاطى الكيف فى مكان عام !

لكن منظر هذه المدخنة السكسونية كان مختلفا تماما ، وما استطعت ان اقرا فى تلافيف الدخان المتماوج بيننا اى شىء غير ما اقرؤه فى الدخان المنبعث من فم اى ذكر خرمان . بنفس البساطة التى اعالج بها سيجارتى تعالج هى سيجارتها ، بأصبعين طويلتين مخضبتين بمزيج من المانيكير وصفرة النيكوتين .

هى اشتاقت للسيجارة فاشعلتها ، ماذا فى ذلك ؟ ولماذا يكون من حقى ـ انا الذكر ـ ان انفخ دخانى فى وجهها دون ان يكون لها حق الرد بنفخة مماثلة ؟ منطق معقول بغير شك وان كنت ارجو الا تستنتج منه اننى اشجع الحريم على التدخين فى الاماكن العامة او فى اى مكان اخر ، فلاشك ان مدخنة شرهة من هذا النوع سوف تنخرط كل صباح فى نوبة من السعال والبصاق بصورة مزعجة لزوجها ، بل ومزعجة لصديقها اذا تصادف وجوده فى تلك الساعة المبكرة .

ومن خلال الدخان رايت فى العيون الجريئة نظرة اقرب الى ان تكون زغرة ، اذ طال تفرسى فى وجهها بما اوقعها فريسة للظنون ، متوهمة اننى ارمى بنظراتى المتطفلة الى اكثر من الدراسة الباردة لما هو متمثل فيها من نموذج للأنثى البشرية المعاصرة فى شمال غرب اوربا . فبادرت الى غض البصر مخافة ان الصق تهمة الوقاحة ببنى جلدتى من اهل الشرق . وليست غلطتى بالطبع انه ـ

بصرى ـ وقع من جديد على الركبتين الجريئتين وما يتاخمهما من الملحقات الميكروجوبية .

لحظات من التأمل الصامت للأنوثة الصارخة هناك ، ثم خطرت لى الفكرة التى جعلتنى اعود ببصرى الى عينيها ، شاعرا باننى قد وقعت اخيرا على سر ذلك الشىء الغريب فى عيون بنات الغرب . نعم هو نوع من الجراة والحرية كما اسلفنا ولكن الامر فيما يبدو اخطر من ذلك بكثير ، لان تلك الجراة البصرية ترجع فى اغلب الظن الى ذلك السبب غير المتوقع بالمرة من لابسة هذا الثوب الصفيق ، انه لا يوجد عندها اى نوع من الشعور بانوثتها ! مثل الرجل تنظر الى الحياة بجراة ومثل الرجل تنفخ الدخان فى وجوه الأغراب ، لا لانها فاجرة او لأنها مستميتة فى الدفاع عن حقها فى المساواة ، وانما لأنها قد مرت فى تطورها بعدد من المراحل التى انستها نهائيا انها تختلف عن الرجل فى اى شىء ! نهائيا نسيت انها انثى ، ولعلها ما لبست هذا الثوب الصارخ الا خوفا من أن اتردى انا الأخر ـ الذكر البشرى ـ فى تلك الهاوية من نسيان حقيقة انوثتها !

من هنا نشات تلك النظرات الحرة المقتحمة ، وكل ما احب ان اسميه بالحرية الحركية العامة لأنثى الغرب . فلعلك قد لاحظت ان هناك طقوسا خاصة لحركة الأنثى الشرقية ، حتى عندما تكون جالسة لا تفعل أى شىء . الجلسة الملمومة مع وضع ثابت معلوم لكل عضو من اعضائها ، والامساك عن اتيان اى حركة عنيفة او مفاجئة تتنافى مع مفهومها العام عن اعتبارات الحشمة . فهى انثى قبل ان تكون انسانا ، ولربما اشتد شعورها بانوثتها حتى يوشك ان ينسيها انسانيتها ، ولربما خالط هذا الشعور الزائد بالأنوثة نوع من الشعور بالنقص او حتى بالاثم ، واحساس عام « بالعورة » يشيع فى كل كيانها كأن الله تعالى يريد أن يعاقبها حين رفض أن يخلقها رجلا ، وحين ارسلها الى الحياة فى تلك الصورة الأنثوية

الناقصة ، الى الابد تسير فى الحياة محمرة الوجه وسط الالف العيون الزانية !

كل ذلك خلصت منه الأنثى الغربية تماما ، ومن كافة الطقوس الحركية التى تفرضها سائر المجتمعات على أنثى البشر ، وهو بغير شك كسب كبير لها ، ذلك الشعور الجديد بانسانيتها من قبل انوثتها ، وتلك الشخصية العريضة المنطلقة مثل شخصية الرجل وهو فى الوقت نفسه كسب للاطفال الذين تشرف على تربيتهم ، والذين يتشربون يوما بعد يوم بتلك الشخصية العريضة المتفتحة . لكننى اتردد كثيرا قبل ان اقول انه كسب للرجل الغربى ، الذى لاشك فى أنه يحتاج الى قدر كبير من النبش المجهد فى طبقات انسانيتها الكثيفة قبل ان يصل الى الأنثى الرابضة فى أعماقها ! ولعل هذا هو السبب فيما لمحته هنا وهناك من شواهد صغيرة توحى بأن الأنثى الغربية قد بدأت تتسلم زمام المبادرة فى تلك الأمور ، وانها هى التى « تنكش » الرجل بنفسها عندما تتذكر فجأة أنها أنثى ! وفى القبلات الكثيرة التى لاتبرح تطرقع حولى فى الشوارع والاتوبيسات « وليس هنا موضع تقييمها اخلاقيا » كانت الأنثى فى معظم الاحيان هى التى تسعى اليها ، غير متحرجة فى سبيل ذلك من جذبة مرحة للذكر المتردد مع مط نحوه للبوز اللائم العطشان !

ومهما بحثت عن فلسفة تفسر بها هذا التطور فى شخصية الأنثى الغربية فلن تجد شيئا سوى العمل ، العمل من التاسعة صباحا الى الخامسة مساء بدون توقف الا للقمة تخطفها فى منتصف اليوم وفنجان قهوة . مثل الرجل تعمل ومثله تعامل حتى نسيت ـ كمانسى الرجل ـ انه يوجد بينهما اى فرق . والدليل على ذلك انه حتى فى مجتمعنا الشرقى الذى نزلت المرأة فيه الى ميدان العمل منذ عهد قريب ، يمكنك ان تلحظ الفرق الشاسع بين المرأة العاملة وبين ست البيت فى النظرات الجريئة المقتحمة ، فى الحرية الحركية العامة . والحمد لله على اننا لم نصل بعد ـ وأرجو

الا نصل ـ الى تلك المرحلة التى احتاج فيها الى لكزة فى جنبى من هذه البنت او تلك تنبهنى بها الى انها بنت لا ولد !

وأنثى سكسونية اخرى جلست امامى فى مترو آخر ، فانا كما تلاحظ قد نفعت هيئة النقل العام اللندنية بشدة ! « . لاحظت أنها تطيل التفرس فى وجهى بواحدة من تلك النظرات الجريئة تخالطها هذه المرة لمسة عذبة حالمة . فانتفخت اوداجى وان كنت لا اعرف على وجه التحقيق ماهى اوداجى . وقلت فى نفسى انه لابد أن يكون سحر الشرق وقد بدا يفعل فعله فى قلوب بنات الغرب . وفجأة رأيت رأس البنت المحملقة يميل الى الامام شيئا فشيئا حتى كاد يسقط على صدرها ، لولا ان سارعت برفعه مع الرمش الشديد بالعينين . فلا سحر شرقى هناك ولا يحزنون ، والحكاية كلها ان البنت متعبة تغالب النوم ! بعد يوم من العمل المجهد الذى اذاب عن جسمها شحم الأنوثة كما اذابه من قبل عن جسم امها وجدتها . وفى ذاكرتى افتش عن اى انثى مصرية رأيتها ـ الأنثى المصرية العاملة ـ لم تصل حتى الآن الى الدرجة اللازمة من الاجهاد . واكون شاكرا لو طردت تلك الفكرة السخيفة التى اشعر بها تتلاعب فى دماغك ، فانا واثق بأن تلك البنت كانت مجهدة فعلا ، وانه لا توجد اية علاقة بين منظرى الخاص وبين ذلك النوم الذى كبس عليها فجأة !

مطر .. وزبيب .. وجنس

شعور بالغيظ الشديد وبالتناقض المربك ساورني حيث سرت رافعا فوق راسي تلك الشمسية السوداء المضحكة ، محتما فى شهر اغسطس لا من شمسه المحرقة كما يقضى المنطق وانما من تلك الامطار اللعينة التى لا تبرح تتساقط على لندن طول الوقت . وارجو ان تكون قد ابتسمت عند كلمة « تتساقط » باعتبارها نكتة ، فالمطر هنا لايتساقط مثل سائر الامطار بل يهطل وينهمر وينسكب ويندلق الى اخر ما يحضرنى من الافعال المغرقة .

فاقل ما يوصف به أنه مهين للكرامة البشرية ، ذلك المطر الانجليزى الوغد . كأن السماء تبول على الارض او كأنها تريد اعلان رأيها فى الجنس البشرى ببصقة كبيرة مركزة . فلا عجب ان ابتدع الانجليز ذلك التعبير عن السماء التى تمطر قططا وكلابا . وما اختاروا فى اغلب الظن تلك الحيوانات اللطيفة الا احتراما لاسماع العيال . فهى فى الحقيقة تمطر ثعابين وعقارب وحلاليف وتيوس !

ورياح مثلجة تعصف حولى وتنفذ كالسم فى عظامى ، أمشير المصرى نفسه لا يعرف بردا كهذا البرد . فلا بد ان اجلس ذات يوم لكي اكتب بحثا عن العوامل السيكوطقسية الكامنة وراء انتشار الانجليز فى الارض وتكوينهم للامبراطورية . هم كانوا يريدون الخلاص باية طريقة من جو بلادهم المنحط ، ولعلهم ماكانوا يطلقون رصاصة واحدة لو وافق اصحاب القارات المشمسة على منحهم تأشيرة دخول !

اسقخص على ذلك الجو ثم اسقخص !

لم اكن مشتاقا لاكل الزبيب المغلف بالشوكولاته ، ولكننى اردت ان امارس تلك المتعة الصبيانية البريئة متعة ان ادس قطعة صغيرة من العملة فى ثقب معين من الماكينة الشبيهة بالميزان الاوتوماتيكى ، ثم اشد شيئا فى اسفل الماكينة فتطلع لى علبة الزبيب !

ولست من عشاق الكازوزة بمختلف انواعها ، ومع ذلك فقد شربتها اكثر من مرة لنفس السبب ، متعة الحصول على زجاجة البيبسى عن طريق قطعة العملة اودعها فى ثقب الماكينة . ودعك من علب السجائر التى اشتريها بنفس الطريقة من الماكينات الخاصة ، التى لا تكتفى بان تعطيك العلبة التى اخترتها بل وتعطيك فى الوقت نفسه باقى النصف كراون ! اذ تسمع شخللة لطيفة للبنس الذى سقط من جوف الماكينة فى فتحة خاصة تمد اليها اصبعا مرتعشة ـ من المتعة ـ وتسحبه منها !

وذات مرة وضعت قطعة العملة المطلوبة فى الثقب فاذا بها تنزل فى الوعاء المخصص دون ان تقدم لى فى مقابلها اى علبة . فالتقطت العملة واودعتها فى الثقب من جديد ، واذا بها تنزل لى فى الوعاء المذكور مرة اخرى . كلما اودعتها نزلت لى وانا لا افهم لماذا يحدث ذلك الى ان ظهرت لى على لوحة خاصة كلمات كهربائية تقول : لا بيع ! اى انها ـ الماكينة ـ قد صبرت على كل ذلك الوقت منتظرة ان ايأس وانصرف فلما وجدتنى لا ايأس لم تجد مفرا من اخطارى بتلك الكلمات انها تعتذر عن البيع لسبب او اخر .

فابتعدت عنها متلفتا حولى بالخجل المناسب من عباطتى ، وحمدت الله على اننى قد رايت تلك الكلمات وامتنعت عن مواصلة ايداع العملة ملحا فى طلب العلبة . فلا يستبعد لو اننى واصلت ازعاج الماكينة بهذا الشكل ان تظهر لى على اللوحة كلمة تهزىء تزعجنى بالرغم من انها بالكهرباء وتجعلنى اضحوكة المكان .

فلست ادرى لماذا لا نستورد عندنا تلك الماكينات اللطيفة او نصنعها ، فلا شك ان ماكينة من هذا النوع سوف تدخل الى اكثر من قلب مصرى ، ولا داعى بالطبع لاشتراط الزبيب المغلف بالشكولاته او البيبسى . حسبنا اى شكولاته تصنع عندنا او علبة بستلية او باكو لبان .

وبالنسبة للكازوزة اعتقد ان تلك المتعة الاوتوماتيكية فى الحصول على الزجاجة سوف تجعلك اقل انزعاجا عند وصولك فى تجرعك للسائل الى الصرصار الصغير السابح فيه . نعم نحن فى حاجة الى ذلك النوع من الماكينات فى هذا الوقت الذى اكثرنا فيه من الحديث عن فنون التكنولوجى

عن الحرية والابتذال

بخطوات واسعة واثقة سارت الفتاة فى لباس غريب لا تعرف ان كان بدلة اخيها او بيجامة اختها وعلى صدرها الجرىء وبالخط العريض نقشت تلك الكلمة الصغيرة ذات الحروف الثلاثة SEX وهى معناها ان كنت لاتعرف « الجنس » تلك الكلمة التى لااظن انك - شانك فى ذلك شانى - قد رايتها مكتوبة على صدر اى بنت ، حتى ولو كانت من ذوات الدوسيهات .

فاذا تركنا الاخلاقيات جانبا ، واذا تركنا فكرة انه اعلان لا لزوم له بالمرة شانه شان لوحة اعلقها انا على صدرى تقول للناس اننى صحفى ، فليس من شك فى اننا لانستطيع ان ننكر على الفتاة تلك الدرجة النادرة التى تتمتع بها من الجراة والقدرة على التحدى .

كما اننا - وهذا اهم - لا يسعنا سوى ان نشهد بالقدرة الفذة للشارع اللندنى على قبول هذا اللون من التحديات . وسط الزحام تختال البنت باعلانها وليس ثمة من يعترض طريقها او يلقى اليها بالا ، تماما كما لو كان المكتوب على صدرها اعلانا عن ماركة سجائر او فيلم سينمائى ، او حتى حكمة او قولا مأثورا ! نظرات سريعة تقرا الكلمة ثم ترتد عنها ، بابتسامة صغيرة ساخرة هنا او هناك .

اعلان كهذا لا يمكن بالطبع ان يظهر فى الشارع القاهرى ، حيث ان مفهومنا القانونى لما يخدش حياء الناس سوف يخول كل العساكر حق القبض عليها وكل المواطنين حق التبليغ عنها . ولكنه حتى بغير الناحية القانونية لا اظن ان بنتا بهذه الصورة يمكن ان تظهر فى شوارع القاهرة . فلو تصادف ان وجدت البنت التى تحتكم على هذا القدر من الجراة - وهذا مستحيل - فهى تعرف جيدا ماذا سوف يحدث لها . هذا المشوار سوف يكون فى اغلب الظن مشوارها الاخير ، بسبب مئات الذئاب الذين لاشك سوف يتكالبون عليها لاسيما لو سولت لها نفسها ان تركب الترام حتى قبل تجربة شبرا . وهذا بالطبع ما لم يستل احد اهل الورع سكينا او مطواة ، ومحوقلا مستغفرا يغمدها فى صدر البنت ويضمن قصرا فى الجنة !

بديهى ان ذهنك لم يتجه الى اننى - فى حديثى عن جراة كل من البنت والشارع اللندنى - احبذ هذا اللون من العناوين على صدور البنات او على اى مكان اخر من اجسامهن ، فالابتذال لم يكن فى اى يوم من الامور التى تستهوينى . انما اردت ان اسجل للشارع اللندنى قدرته الفذة على ضبط النفس ، وعلى مبالغته فى تقديس حرية الفرد حتى فى أن يبتذل نفسه .

وفى النهاية لا افهم السبب الذى من أجله اكتفت البنت بتلك الكلمة الواحدة مع ان صدرها كان يتسع للمزيد من التفصيلات ولا شك ان عنوانا كبيرا كهذا كان يحتاج الى بعض السطور الصغيرة التفسيرية ، توضيحا منها لماذا تعنيه على وجه التحقيق بكلمة الجنس ، هل هى مثلا معه او ضده ، هل تعنى به الجنس بين الازواج أو بين غيرهم ، على سبيل التسلية او التجارة ؟ وما الى ذلك من المعلومات التى يحتاج اليها غريب مثلى فهذا هو أحد العيوب التى ضايقتنى فى الانجليز ميلهم الشديد الى الغموض

عن القط البريطانى

كان يمكن أن يكون شكلى فى منتهى العباطة حيث وقفت على الرصيف باسطا خريطة لندن ، متر فى متر ، لكى أعرف اين انا على وجه التحقيق ، لولا انه كان يوجد حولى نحو دستة اشخاص من جنسيات مختلفة وقد بسطوا خرائطهم الخاصة وراحوا يحملقون فيها على نفس الرصيف بنفس الحيرة ونفس التوهان ونفس العباطة .

فلقد احتجت الى اسبوع كامل لكى اكتشف ان نصف من اصطدم بهم فى شوارع لندن ليسوا من اهلها ، وان لندن قد تحولت من عاصمة امبراطورية الى مايشبه حديقة الحيوان عندنا يوم شم النسيم ! فبعد أن قضى الانجليز قرابة قرنين من الزمان وهم يبيعون منتجاتهم فى كافة انحاء الأرض بقوة السلاح ، وبعد ان جرى للسلاح ما جرى ، لم يجدوا امامهم طريقة لاستثمار لندن سوى أن يؤجروها مفروشة ! مثل النبيل الذى تهدده مصلحة الضرائب باشهار الفلاسه فيزيل الاسلاك الشائكة من حول قصره ويحبس الكلاب المفترسة ويفتح الابواب لكل من يحب أن يتفرج على امجاد التاريخ بعد أن يدفع للبواب ثمن التذكرة .

ومن المؤكد ان فى لندن اشياء كثيرة تستحق أن يتفرج عليها الانسان ، حتى بعد أن نسقط من حسابنا تغيير حرس الملكة والبلطة الاثرية التى قطعت بها راس ان بولين بأمر من زوجها هنرى الثامن ، بعد أن كان قد طلق فى سبيلها زوجته الاولى كاترين ، مضطرا فى ذلك الى تحويل بريطانيا من الكاثوليكية الى

البروتستانتينية . ذلك ان لندن تتميز على سائر المدن السياحية بخاصية فريدة حقا ، وهى انها المدينة الوحيدة التى يمكنك أن ترى فيها - أيا كانت جنسيتك - شيئا كان ذات يوم عندك انت !

وهكذا تزدحم الشوارع بالاف التائهين الذين يحملقون فى الخريطة بالبلاهة السياحية المناسبة . والمساحة الزرقاء التى تمثل على خريطتى نهر التيمز فوجئت بها وقد تحولت بقدرة قادر الى مجرى مياه حقيقى ، تحت ذلك الوابل من المطر اللندنى الوغد الذى يصفقه السماء فجأة لتغرق كلا من الخرائط والمغفلين الذين يحملونها !

القط البريطانى

لأول مرة فى حياتى اقضى ليلة فى حجرة تحت الأرض ، فى البدرون - او البدروم اذا كنت تفضل الميم - الذى يشرف من تحت الى فوق على رصيف الشارع اللندنى . السبب فى ذلك بالطبع هو ضيق ذات اليد ، فمن اين احصل فى لندن على العملة الصعبة وانا الذى أعانى فى القاهرة كل ما اعانيه فى سبيل الحصول على الأخرى السهلة !

لكننى والحق يقال لم اشعر بكل ما كان يجب ان أشعر به من الضيق بسبب ذلك الضيق فى ذات اليد ، وذلك لما يسهل عليك تخيله من انواع التسالى المتوفرة فى عملية التطلع من اسفل الى أعلى اذا تصادف ان كان الوقت صباحا وفى عاصمة زيها الرسمى هو الميني جوب ! فبينما انا احملق الى تلك التسالى من خلال القضبان الحديدية للنافذة وجدت شيئا من الصعوبة فى منع نفسى من أن اضحك لوحدى كالعبيط ، متذكرا ما يشكو منه سكان البدرونات الانجليزية من النظرات المتطفلة لما يسمونه « توم البصاص » ذلك الشاب الذى يتعمد التلصص بالنظر الى مجريات الأمور فى تلك الحجرات الواطئة خصوصا عندما يحل من الظلام ما

يخفيه عن العيون وما يهيىء لسكان الحجرة أن يخفيهم . اذ كنت انا ـ فى وقفتى تلك انظر الى مواكب المينى جوب العابرة ـ اول توم يتبصص على الناس من الداخل الى الخارج !

لكن ذلك الموكب البشرى ما لبث ان هدأ بذهاب الناس الى اعمالهم ، ومن خلال القضبان الحديدية قابلتنى عينان خضراوان براقتان ، فى وجه مستدير لقطة بريطانية تقف على رصيف الشارع ، كثيفة الشعر نافشة الذيل متغبشة اللون ملظلظة بشدة . قلت لها بسبس فأجابتنى من حيث وقفت على الرصيف قائلة نو ، الأمر الذى طمأننى الى أن لغة القطط فى لندن هى نفس لغتها فى القاهرة ، وانه بالرغم من اللكنة الخفيفة التى تشوب نونوة هذه القطة فلن يكون عسيرا على أن اتفاهم معها ، ولربما كان تفاهمى معها ايسر من تفاهمى مع اصحابها الذين لاافهم بالرغم من اجادتى التامة للغتهم المكتوبة شيئا مما يقولون .

وقفزة رشيقة نقلت القطة الى حافة النافذة ، تمسحت بجنبها لحظة فى أحد القضبان ثم وثبت الى أرض الحجرة تتشمم الدنيا حولها ، رافعة فى خلال تجوالها ذنبها النافش الذى قال لى انها ليست قطة وإنما قط !

ـ ناو !

هكذا قال من جديد وهو يرفع نحوى نظرة خضراء مناشدة ، فتذكرت علبة الفراخ المحفوظة التى كنت قد اشتريتها لزوم الغداء بكذا شلن وسنت ، ومن العلبة أخرجت قطعة نسيرة وضعتها له على الأرض فوق ورقة من الملحق الاقتصادى لجريدة التايمز ، حيث انه من المستبعد ان تكون هناك فائدة كبيرة لذلك الملحق بالنسبة لرجل يسكن تحت مستوى التيمز . ، لاحظ الفرق بين التايمز والتيمز لكيلا تتورط كعادتك فى ذلك الخلط المضحك بين الكلمتين .

فى وقار لالزوم له فى ذلك الموقف تقدم القط من قطعة الفراخ ،

تشممها لحظة بأنفه السكسونى* الحساس ثم رفع بصره نحوى قائلا ناو ، الأمر الذى فهمت منه انه اما انه يشك فى الدوافع الكامنة وراء هذا الكرم غير المتوقع من ناحيتى ، واما ـ وهذا مستبعد طبعا .

ـ انه لايحب الفراخ .

ـ ماذا تعنى بقولك ناو ؟ لماذا لا تأكل ؟

هكذا سألته بلغته الانجليزية فلم يزد على قوله ناو ، وكان فى لهجته هذه المرة نبرة عتاب لم افهم لها سببا . ثم ادنى انفه من النسيرة وشمها من جديد ، وبهيئة من يقبل على مغامرة خطرة قضم منها بأسنانه فتفوتة صغيرة ، لاكها حينا فى فمه ثم ابتلعها بصعوبة ، متوجسا فى اغلب الظن من ان اكون قد دسست له السم فى الطعام فى ذات نزوة مصرية رسبت فى نفسى من ايام الاحتلال .

ـ كل متخافش ! كل ! اطفح !

فقضم فتفوتة أخرى وهذه لم يبتلعها بل بصقها ، ويهز راسه بقوة لكى يطرد جزءا منها علق بشعرة من شاربه . ثم رفع يده الى فمه وحكه لكى يزيل عنه كافة الآثار ، وابتعد عن المكان كله وهو يجعر قائلا ناو . فهو اذن ـ قطعا وجزما ـ لايحب الفراخ أو على الاقل لايحب الفراخ المعلبة ، واذا كان قد اكل تلك الفتفوتة فما ذلك الا على سبيل جبران الخاطر ورغبة من ناحيته فى الا يكسفنى .

وبناو أخيرة توديعية قفز الى حافة النافذة ومنها الى الرصيف ، وابتعد وهو لايزال يهز رأسه لكى يطرد عن شاربه ـ وعن ذاكرته أيضا ـ كل ما تبقى من آثار الفراخ التى سوف اتغدى بها انا ، ولعله وهو يفعل ذلك ترحم على الأيام الحلوة القديمة حين كانت الفراخ فراخا ، وتصعب حسرة على هذا التدهور المتواصل فى المستوى السياحى .

فراقبته يبتعد وانا اتصعب بدورى أسفا على هذا الترفه ـ المرضى بغير شك ـ الذى وصل اليه القط البريطانى . وهى بالطبع مسئولية التاجر البريطانى الجشع ، الذى فى تصيده للشلنات والبنسات بكافة الطرق عمد الى تلك الحيلة الدنيئة التى رأيتها على احد الرفوف فى أحد محلات البقالة ، ممثلة فى علبة تحتوى على غذاء خاص للقطط ، مكون كما تقول العلبة من توليفة نادرة من شحم الخنزير ولحم الدجاج المفروم . فلماذا والحال كذلك لايعزف القط الانجليزى الوغد عن الغدوة التى كنت أنا اعتبرها نوعا من الرفاهية حيث أقيم تحت الأرض ؟

فلففت النسيرة فى الملحق الاقتصادى والقيت بالاثنين فى صندوق الزبالة ، قائلا لنفسى انه ليس من الغريب أن يصل القط الانجليزى الى هذا الحال بعد قرنين من الزمان قضاهما الرجل الانجليزى فى عض عباد الله وخربشتهم فى اربعة اركان الأرض !

وعلى اى حال فالحمد الله على اننى فى لندن لا فى نيويورك ، فعند المقارنة بين درجات الثراء ما اظننى كنت أنجح فى استمالة اى قط هناك ما لم اعزمه على الغداء فى هيلتون !

من هايد بارك

عند ذكر هايد بارك قد يتجه ذهنك الى خطبائها المشاهير الذين يقفون صباح كل احد لكى يعبروا عن انفسهم فى مختلف القضايا السياسية والدينية ، فاشلين غالبا فى اثبات صحة آرائهم وناجحين دائما فى استثارة سخرية الناس منهم ، فليس من الحكمة أن تقف لكى تدافع عن الكاثوليكية ضد البروتستانتية وسط مجموعة من الناس اوشكت ان تكف عن الاهتمام باى من المذهبين . وليست هناك اية مناسبة لان تضيع يوما كاملا فى الحديث عن بشاعة الحرب الذرية مستخدما نفس الاسانيد التى قراها مستمعوك فى جريدة الصباح . اما اذا خلعت فانلتك عن جسم مغطى بأنواع مختلفة من الوشم الأزرق والاخضر فلا اظنك ستظفر من المجتمعين حولك بأكثر من شعور بالاسف على انهم لم يذهبوا الى حديقة الحيوان !

معظم اولئك « الخطباء » ليسوا اكثر من نفوس حائرة تعسة ضلت طريقها الى العيادة النفسية ، ووجدت فى هايد بارك مكانا تتنفس فيه تحت حماية القانون عما يعتمل فى صدرها المكروب . فلا شك ان « أعقل » اولئك الخطباء هى تلك السيدة البدينة التى تجلس وفى يدها عصا تقرع بها صفيحة قديمة فارغة ، وتنشد على الايقاع وبصوت مضحك اغانى قديمة يرددها بعض المتفرجين على سبيل المجاملة . فهو وفقا لذلك ـ ركن الخطباء بهايد بارك ـ نوع من العيادة النفسية التى يقوم فيها المجتمع كله بدور الطبيب لتلك النفوس الحائرة ، ومن الانصاف ان نقول ان ذلك المجتمع قد نجح حقا فى تقمص دور الطبيب ، الذى يستمع فى صبر طيب لهلوسة المريض ولا يعمد الى التريقة عليه فى نزوات السخرية المتباعدة باكثر من سبقه الى اكمال جملة له يكون قد سمعها منه فى ايام

الاحاد السابقة .

غير انه ليس من اللازم لذهنك ان يتجه الى الخطباء عند ذكر هايد بارك فاغلب الظن انه سوف يتجه - انا عارف ذهنك كويس ! - الى ما ترتبط به تلك الحديقة فى جرائدنا من حرية جنسية تتفاوت درجاتها وفقا لمزاج رئيس التحرير . فلعله مما يفجعك ان تعلم اننى ذرعت هايد بارك اكثر من صباح دون أن أرى أى نوع من القبلات - لايارببى رايت ذات صباح قبلة واحدة خاطفة ! فلعل السبب فى ذلك أن الناس يكونون فى ذلك الوقت فى اعمالهم ، أو لعل التقبيل الصباحى مفضل هناك فى حديقة ريجنت ، حيث لمحت فى نهاية رقعة الحشائش الخضراء المترامية شخصا راقدا هناك ثم استوى جالسا فاتضح انه ليس شخصا وإنما شخصان !

غير أن الموقف يبدأ فى التحسن بالطبع حين يذبل ضوء النهار ، اذ سمعت ذات يوم بعد الغروب - هناك حيث جلست على كرسى طويل من القماش ايجاره بالنهار تسعة بنسات - صوت زقزقة لعصفور سيىء الخلق بدليل تأخره فى النوم الى ذلك الوقت ، ثم تبين لى انها طرقعة لقبلة بين شبحين يجلسان غير بعيد منى على مقعدين متلاصقين بالدرجة المناسبة . فلربما كان التقبيل الليلى هناك راجع الى العوامل الاقتصادية البحتة ، باعتبار أن القبلة مهما كان نوعها - ولاسيما بعد تخفيض الاسترلينى - لايمكن ان تساوى ١٨ بنسا !

ولقد كان يسرنى أن امكث هناك بعض الوقت لكى أرى كيف تتطور الامور بعد حلول الظلام الكامل ، ولكنك تلاحظ أنه قد مضى ربع ساعة من الزمان قبل أن ينزل أى نوع من المطر او تحت ذلك المطر اللندنى الذى انهمر فجاة كان من الصعب على ان ارابط فى الحديقة مهما بلغ من نبل ما عندى من مقاصد الاستكشاف ، وحتى لو تحديت الامطار وبقيت فلا شك أن منظرى حيث أجلس هناك تحت الشمسية لن يكون منظرا مريحا للرأى العام اللندنى - خاصة وانا لاأقبل احدا ! سوف يظنون اننى مجنون هارب من مستشفى

المجاذيب او عاقل فى طريقى اليه ، أو اننى ، توم ، بصاص يتنكر تحت اسم محمد ، أو اننى لص انتظر لحظة انسجام بين زوج من العشاق لكى اسرق محفظة الولد أو شنطة البنت ، وهذا بالطبع مالم اكن رجلا من بقايا المتطهرين يفكر فى ذبح المذكورين لكى يكسب شيئا من الثواب .

ومهما كان من امر - ومهما اشتد الظلام - فلست أظن انه كان يوجد هناك نوع من العشاق ، مستبعد جدا أن يحلو الحب للناس تحت ذلك المطر الوغد ، الذى لاأشك فى انه كفيل باطفاء اشد العواطف اتقادا . وحتى لو وجدت تلك العاطفة التى تصمد لذلك المطر فدواعى المحافظة على البقاء سوف تحتم على العاشق رفع شمسية فوقه وفوق معشوقته ، ولست أظن انه موجود فى لندن - بالرغم من كل ما فيها من التقاليع - ذلك العاشق الذى يطيب له أن يحب بيد واحدة !

مثل هذا التهور العاطفى قد كان يمكن أن يكون مفهوما لو لم تكن هناك اتوبيسات أو قطارات لها سقوف تظلل الحب من المطر . أما مع وجود تلك التسهيلات العصرية فليس ثمة عاشقين[1] مجنونين يختاران هايد بارك حيث يتحابان ويستحمان فى وقت واحد . ولعل هذا هو السبب فيما قيل لى من انه كان لهايد بارك سور ازالوه فى العهد الأخير ، فما لزوم ذلك السور بعد ان صارت لندن كلها هايد بارك !

اما ذهنى انا فهو اليوم لايتجه الى شىء عند ذكر تلك الحديقة الا الى اللون الاخضر عندما يكون اخضر ، وتلك ميزة فى حدائق لندن لايشكر عليها بالطبع غير السماء التى لاتبرح تغسلها طول اليوم . فانت فى حاجة الى أن ترى تلك الخضرة الزاهية لكى تعرف أن القول بان اشجارنا خضراء لايعدو تعبيرا مجازيا ، تماما كقولك ان سجائرنا - فى الفترة الأخيرة على الاقل - سجائر !

الخضرة الخضراء فى رقعات الحشائش الفسيحة المترامية الى مدى الشوق فى تلك الحديقة الفذة التى تبلغ مساحتها - صدق أو

لاتصدق - ٦٤٠ فدانا انجليزيا ! أى أنها أكبر من أى مركز عندنا أو بندر ، ومن ثم وصفها السياسى البريطانى وليام بت بأنها رئة لندن . ذلك التعبير الذى لاادرى لماذا تصر كافة الموسوعات على تسجيله ، وربما كان ذلك لانه - رغم بداهته الى درجة الابتذال - صادق كل الصدق .

فبغير هايد بارك وامثالها من الحدائق التى تزخر بها لندن كان الناس يختنقون هناك حتما ، من دخان المصانع المحبوس تحت تلك الخيمة الكثيبة الداكنة من السحب الرابضة الى الابد فى سماء لندن !

ومن جماع تلك الخضرة الخضراء وذلك الاتساع الرهيب فى تلك الحديقة الفذة ينشأ فى نفس المرء احساس لامفر منه بالضخامة والجلال ، واحساس لامفر منه هو الاخر بالمرارة ، اذ يخيل للاذن المرهفة انها تميز فى حفيف الرياح الباردة عبر الحشائش وبين اغصان الشجر شيئا كالانين ، لالاف الارواح التعسة التى طلعت ذات يوم فى كل قارة من القارات الخمس أمام بنادق المستعمرين المتعطشين للدماء ، ولارواح كثير من الانجليز ايضا ، اذ كانت هايد بارك ذات يوم - كما تقول الكتب السياحية نفسها - ميدانا للمبارزة بين المافونين من النبلاء ، ومباءة للسفاحين وقاطعى الطريق ، ومصبا للعتاة الرهبان الذين كانت الحديقة موقوفة عليهم حتى انتزعها هنرى الثامن ضمن ما انتزع منهم بقصد قطع دابرهم . غير ان الملكة كارولين - زوجة جورج الثالث - ما لبثت كما يحكون أن طهرتها وحولتها من غابة الى حديقة ، فى الاثناء التى كان زوجها مشغولا فيها بقمع الثورة الامريكية توطئة لان يجن .

لكنك مهما قلت لايمكنك أن تتخلص - حتى عندما يهطل المطر الوضيع - من ذلك الاحساس بالضخامة والجلال ، وبالحرية المسرفة عندما يحل الظلام وتزقزق حولك عصافير الليل الساهرة !

لا لون للحب

لابد انك قرات كثيرا عن السفاحين اولاد الكلب ، الذين ابحروا ذات يوم من موانىء بريطانيا والبرتغال وغيرهما الى شواطىء افريقيا ، وذلك لممارسة اوسخ تجارة يمكن أن يمارسها الانسان وهى تجارة الانسان نفسه ! بقوة السلاح الحديث يصيدون السود العزل مثلما تصيد الارانب البرية او الغزلان ، وفى قاع السفينة يكدسونهم كالخنازير ، فى رحلة طويلة الى المستعمرات فى الامريكتين ، فى خلالها يموت منهم بالمرض والجوع من يموت ، وبالرصاص يموت من يخطر له أن يثور ، وهناك فى تلك المستعمرات يسمونهم بالالات الحية اللازمة لاستغلال المزرعة ، تماما مثل ما فيها من البقر والجاموس ، ولعله مما يدلك على بشاعة تلك الحرفة أن احد اولئك القراصنة - وهذا انجليزى عمد فى ذات غارة على اولئك السود التعساء الى قتل عدة الاف منهم فى سبيل ان يصطاد اربعمائة لاغير .

ساورتنى تلك الخواطر وانا جالس فى مترو لندن ، وغير بعيد منى منظر يحتاج المرء الى كثير من الجهد لكى يصدق انه يراه ، منظر تلك اليد البيضاء للشاب الانجليزى وقد اشتبكت فى حنان باليد السوداء لصاحبته الافريقية المسمسة ، وبين حين واخر تتضاغط اليدان فى محبة زائدة ، فى اجمل صورة بالابيض والاسود للاعنصرية الكاملة وللتضامن الافرو أوربى .

فلا شك ان شيئا لايقل عن المعجزة قد وقع حتى جعل من الممكن أن ينحدر هذا الشاب الانسانى الرقيق من صلب ذلك

السفاح المجرم ابن ستين كلب ! ما هو ذلك الشيء لاادرى ولكنه قد حدث ، ومن الابتذال بالطبع أن اقول ان هذا الشاب لايفعل شيئا سوى التكفير عن ذنب الاجداد .

وكانت هناك فى عينه نظرة متجاهلة لمن يجلسون حوله ولاتخلو من لمسة من التحدى ، اذ يعلم ان ليس كل من يرون هذا المنظر يباركونه من قلوبهم ، لاسيما تلك الشلة الجالسة هناك والمكونة فيما يبدو من سياح امريكان . وهو فى الوقت نفسه يعرض شخصه لتهمة القصور ، وانه لو لم تنبذه البنات البيض لما رضى لنفسه بتلك الصديقة السوداء ! لكنه يقول للناس بتلك النظرة المتحدية ان الأمر لايهمه بالمرة ، وانه حر فى اختيار صديقته ، وانه يؤمن بالمساواة بين كل البشر ، وبالاختصار كده طظ فيكم !

وفى عين البنت نظرة سعيدة وشبح ابتسامة يتلاعب على زاوية فمها لايخلو للاسف من شبهة مرارة صامتة . فهى بدورها تقرأ ما يدور فى ادمغة الناس حولهما ، من انها حين ضمت ذلك الشاب الابيض اليها قد سرقته من اهله واخذت فيه شيئا اكبر مما تستحق .

احببت الاثنين من قلبى وتمنيت لهما اطيب الاوقات ، وتذكرت كلمة كنت قد كتبتها ذات يوم عن التهجين ، وعن مدى غباء الانسان الذى يعمل على تحسين كافة السلالات ، ما عدا سلالته الخاصة ، غير مكترث بعبر التاريخ التى تشير الى انه ما من حضارة كبيرة قامت الا على اثر هجرات متعددة واختلاط بين عدد من الشعوب ادى الى ظهور تلك الطفرة الحضارية الجديدة .

وتضاعفت اليدان من جديد فى حنان فازداد حبى لهما ، ولذلك ـ او بالرغم من ذلك ـ تمنيت لهما ان يتزوجا وينجبا طفلا . فلست اشك فى انه سوف يكون اجود وامتن من اى طفل يولد اوربيا او افريقيا خالصا ، دعك من ان لونه سيكون جميلا جدا ، أم تراك سوف تجادلنى فى جمال لون القهوة باللبن !

العسكرى الحزين

لست ادرى لماذا يخيل الى ان عسكرى البوليس الانجليزى ليس سعيدا فى حياته . لاشك ان للمطر اللندنى الوضيع اثره فى ذلك ، اذ يلوذ منه المدنيون بالبيوت والبارات ويضطر هو ان يشربه كله فى عرض الطريق . لكنه بدا لى غير سعيد حتى فى الساعات النادرة التى تطلع فيها الشمس او تعد بالطلوع ، ثمة نظرة حجرية فى عينيه توحى بصرامة اكثر مما يستلزمه اجراء بوليس عادى مثل ذرع الرصيف بتلك الخطوات البطيئة الواسعة .

ولربما كان السبب فى تلك الجهامة انهم يصرون هناك على اختيار عساكرهم طوالا ممشوقى القوام يميلون الى الوسامة ، فرجل بهذه الصفات قد يعانى شيئا من المرارة المبررة بسبب طول الوقت بان مكانه الطبيعى ليس الرصيف وإنما شاشة السينما ، وان عمله الطبيعى ليس مطاردة اللصوص وإنما مطاردة الحسان .

وهناك احتمال كبير لان تكون من اسباب تعاسته تلك الخوذة المضحكة التى يضعونها فوق راسه مثل سلطانية مقلوبة ، والتى لايمكن ان تكون لها اية فائدة فى غير اوقات المظاهرات المعادية لامريكا . كما انه من الممكن ان يكون بنطلونه هو السبب ، باتساعه الشديد الذى يجعله اشبه ببنطلون على ساقى دمية فى فترينة للعب الاطفال .

نعم هو ذلك البنطلون فى اغلب الظن . التهمة على هذا البنطلون ، لالسبب هذا الاتساع وحده وانما بسبب ما يخيل الى من انه ـ على عكس بنطلونات الناس جميعا ـ ليس له جيوب . حقا اننى لااستطيع ان اقطع بذلك بسبب طول الجاكتة ، ولكن اذا كان لبنطلون العسكرى جيوب فلماذا لم ار يده موضوعة فى جيبه مرة واحدة ؟ فاذا صح ظنى فلاشك ان هذا البنطلون يصبح نوعا من

التعذيب ، كلما هم المسكين بأن يدخل يده فى جيبه فيجد أنها قد دخلت فى لاشىء .

ولقد خطر لى ان استوثق من الأمر بنفسى ، بأن اقترب منه وارفع ذيل جاكتته فى هدوء باحثا عن الجيب ، لكننى قلت لنفسى انه فى الغالب لن يرحب بهذا القدر الزائد من الفضول السياحى . بل انه لن يرحب بمجرد سؤالى اياه ان كان له جيب ام لا ، استنادا الى ماوصفت لك من نظرته الحجرية الكارهة للحياة . فكيف يرحب بهذا السؤال الشخصى وهو كما دلتنى التجربة لايرحب بسؤالى اياه اين يوجد الشارع كذا ؟ نعم هو يجيبنى دائما على هذا النوع الاخير من الاسئلة ، ولكنه وهو يفعل يبدو من امره انه يكرهنى ويكره الزمن الذى ارغمه على اجابتى . اصبعه التى يشير بها الى الطريق يتمنى فيما يبدو أن يدبها فى عينى ، ولهجته لهجة رجل لايرشدنى بقدر مايشتمنى .

أكاد اسمعه ـ وهو يرشدنى الى المكان المطلوب ـ يقول ـ تمشى كده على طول مشيت بطنك ! وتعدى الشارع الهى تتطس بعربية ! وتكسر يمين جك كسر دماغك ! تلاقيه فى وشك اللى يقطع الخميرة م البيت !

لماذا الحرس ؟

ربما كنت انا السائح الوحيد الذى لم يذهب الى قصر بكنجهام لكى يتفرج على تغيير الحرس الملكى . من ناحية لان الدنيا كانت تمطر كلما خطر لى أن اذهب ، ومن ناحية اخرى لاننى فى داخلى غير موافق على الفكرة كلها . ففى اعتقادى ان الملك الانجليزى وفقا لصورته العصرية لايحتاج الى اى نوع من الحراسة ، حيث ان احدا لايمكن أن يخطر له ان يقتل الملك فى وجود رئيس الوزراء . وهذا يتأكد بالطبع اذا كان ذلك الملك ملكة ، فليس ثمة من يفكر فى قتل الملكة غير مجنون هارب من المستشفى ، وفى مواجهة مثل هذا الخطر لااظن ان الملكة تحتاج الى اكثر من بواب للقصر وكلب وولف . اما كل هذا العدد من الحراس بملابسهم

المزركشة وقبعاتهم المضحكة فنوع من الاسراف الذى لامناسبة له فى موجة التدهور التى يتعرض لها الاسترلينى . ولكن القصر الملكى يصر فيما يبدو ان يظل قصرا امبراطوريا حتى بدون امبراطورية . وهو اصرار لايفترق كثيرا عن اصرار برنس مصرى سابق على ان يكون لسيارته سائق يلبس اليونيفورم والكاسكيت ، يعطيه ماهيته فى أول الشهر ثم يبدا فى اقتراضها منه من يوم خمسة !

نعم هى نفقات لامبرر لها بالمرة ، ويكون احكمُ لو وجهت لتحسين حال بعض المواطنين المساكين ، مثل الرجل الذى يقف على باب محطة ميدان راسل وقد علق على صدره لافتة تقول للمبصرين انه اعمى ! او للرجل الاخر الذى اقابله كل صباح فى شارع ستراند ، طويل اللحية رث الثياب يتوكأ على عكازين يحملانه بسرعة غريبة الى مهمة مجهولة لايمكن بالطبع ان تكون الفرجة على تغيير الحرس !

زبيبة على السلم

فرحة صبيانية تغمرني كلما وضعت قدمي على بداية السلم المعدني المتحرك الذي يوصل بين أرض المحطة وانفاق المترو - والذي ينزلق بي الى اسفل في سرعة معتدلة تسمح لي بأن اخرج من جيبي علبة الزبيب الذي بالشوكولاتة ، ومن العلبة وباصبعين رشيقتين التقط زبيبة اقذف بها الى فمي ، ماضغا اياها بالكبرياء المناسبة لرجل متحضر ينزلق الى جوف الارض دون ان يبذل من ناحيته اي مجهود عضلي .

غير انني لااظن ان تلك السرعة المعتدلة التي تتميز بها حركة السلم قد روعيت من أجل أكل الزبيب الذي بالشوكولاتة فحسب ، بل من أجل اتاحة الفرصة للرجل المنزلق لكي يقرأ كافة الاعلانات المعلقة على الحائط بجانبه في براويز زجاجية جميلة ، والتي تنحدر معه الى نهاية السلم محدثة اياه عن انسب الاحذية له واصلح السوتيانات لزوجته . جذابة جدا . تلك الاعلانات ولافتة للنظر ، ومريحة للعين في بعض الاحيان انهم قد ركبوها على الحائط في البداية ثم صنعوا السلم لكي يحاذيها ، اللهم إلا إذا كانوا قد وضعوها نصب اعينهم وهم يضعون الخطوط الاولى في مشروع قطارات الانفاق .

ومهما كان من امر فهي متعة لاشك فيها ، متعة احساسك - حيث تنزلق - بأنك تعيش في عصر الالة التي تتولى عنك كل العمل ، وأن مازج تلك المتعة بالنسبة للشرقي مثلي احساس مزعج بأنه متطفل على تلك الالة التي يعجز عن صنعها . بل انه فيما يبدو يعجز عن تشغيلهااذا هو اشتراها جاهزة ، بدليل السلم المتحرك

الذي ركبناه منذ سنوات في محطة الرمل بالاسكندرية ، والذي اشتغل موسما صيفيا واحدا ثم انتفض لغير ما سبب واضح ومات .

وذلك في مقابل مالا يمكن ان يقل عن الف سلم من هذا النوع في لندن ، تعمل طول النهار ومعظم الليل دون ان تتعب ابدا ، مرة واحدة رايت في منتصف الليل سلما كتب عليه انه عطلان ، وفي الصباح الباكر ذهبت فوجدته قد عاد يشتغل كالحصان ! فيبدو انهم في قيامهم بتلك الاصلاحات الطارئة لايحتاجون الى الحصول على توقيع من الملكة !

فاذا تغاضينا عن هذه المتعة الميكانيكية فهناك متعة اخرى تنتظرك على الدوام حيث تنزلق على ذلك السلم متعة الفرجة على مئات الوجوه التي تقابلك على السلم الآخر الذي يصعد باصحابها من تحت الى فوق ، وجها بعد وجه تمر بك مثل لقطات متوالية في فيلم سينمائي ومن النوع المضحك بالطبع ، لانك في تلك الوجوه ترى كافة جنسيات كوكب الارض ، وترى كافة التعبيرات عن كافة النوبات النفسية التي يمكن ان تعتري الانسان من الفرحة الضاحكة على وجه سائحة امريكية اتت بومين لتلهو ، الى اليأس القاتل على وجه مهاجر باكستاني او ياباني حمل امتعته وقطع كل المسافة من اسيا الى لندن لكي يكتشف انه لن يجد هناك عملا . والملل القاتل في وجه موظف الف ان ينزلق بنفس الصورة مرتين في اليوم منذ ثلاثين عاما ، والصرامة الصارمة في عين عملاق زنجي وفد الى العاصمة البريطانية وقد عقد العزم على ان يغزوها غزوا .

وبالطبع جميع مقاسات الشعر على رءوس الشبان لندنيين كانوا او سياحا ، الى الكتف يتهدل الشعر في بعض الاحيان اذا كان ناعما ، او يرتفع الى اعلى ويكون فوق رأس صاحبه ما يوشك ان يحولها من رأس شاب الى رأس عبد ! وما من سلم يخلو بالطبع من

قبلة ملتهبة بين شاب وفتاة ما نزلا عليه ـ السلم ـ أو طلعاً الا استجابة لمعناه القرويدى البحت .

لكن السلم لايلبث للاسف ان ينتهى وتضطر الى معاودة تلك العادة البدائية المزعجة ـ عادة تحريك الساقين عند السير على الأرض الثابتة . وهناك فى الانفاق تنتظرك متعة أخرى لاتخلو من طرافتها الخاصة ، متعة الفرجة على عشرات السياح الواقفين امام خرائط المترو فى حالة من البلاهة الكاملة والتوهان العام . فتلك الخرائط بالنسبة للغريب لاتزيد على كونها لغزا الكلمات المتقاطعة ، وبلغة اجنبية أيضا ! وانت قد تنجح فى حل اللغز وقد تفشل ، ولن تصدقنى اذا قلت لك أن نصف الاماكن التى زرتها فى لندن قد وصلت اليها لمجرد اننى كنت ذاهبا ـ بعد استشارة الخريطة ـ الى اماكن أخرى !

ثمة متعة ثالثة تنتظر فى جوف القطار ذاته . ذلك الاحساس بانك لست فى قطار بقدر ما أنت فى اجتماع للامم المتحدة ! هناك حيث تجلس بين ذلك « الافندى » الانجليزى العادى بثيابه الرسمية العتيقة ، وبين عملاق اسود يذكرك بمحمد على كلاى ، وهندى ذى عمامة بيضاء تتناقض عن عمد مع سكسوكته المشذبة السوداء ، وانثى من اعماق افريقيا بثيابها الوطنية المزركشة فى جراة نادرة ، وفتى فرنسى كث الشعر والسوالف يضع حذاءه على المقعد المقابل فى وقاحة لاتينية مزعجة ، وايطالى يحكى لصاحبته وبأعلى صوته نكتا يبدو من طريقة ضحك الفتاة أنها بذيئة ، غير الالمان والاسبان والصينيين والروس ، والناطقين بالانجليزية الذين وفدوا من امريكا وكندا واستراليا ، ومن اقاليم بريطانيا مثل أهل الريف فى توافدهم على القاهرة فى مولد السيدة . كل الالوان تراها وكل اللغات تسمعها ، اذا استطعت بالطبع ان ترتفع بمستوى بصرك عن ذلك الميكروجوب الجالس امامك !

وتلك القطارات بالطبع نعمة من نعم الله على الانجليز فى دقائق

تنقلهم من أول البلد لآخرها ، تاركة الاتوبيسات للذين ليس وراءهم حاجة . ولذلك مارست فى لندن متعة أخرى لم امارسها فى القاهرة منذ الحرب العالمية ، متعة الركوب فى الاتوبيس جالسا ! وهذه الانفاق والقطارات قد تم تشييد الجانب الرئيسى منها ـ صدق أو لاتصدق ـ قبل بداية هذا القرن ، اى قبل أن يعرف الترام طريقه الى ما فوق أرض القاهرة ! فهو ـ كما ترى ـ سباق رهيب بيننا وبين حضارة الغرب الصناعية ، سباق لن نستطيع أن نجاريه مالم نتخفف من كافة ركائبنا القديمة ونركض بكل قوانا اذ ما كدنا نلحق بعصر البخار حتى سبقونا الى عصر الكهرباء ، وما كدنا ندخل النور حتى وثبوا الى عصر الذرة . فمعذرة اذا سمعتنى اتنهد وأنا امضغ هذه الزبيبة التى ابت الامم الغربية ان يأكلوها الا مكسوة بالشوكولاتة ! انما طعمة قوى وشرف النبى ، تأخذ لك زبيبة ! !

البطة وأنا

على دكة على شاطىء القنال الصغير فى الضاحية اللندنية المسماة بفينيس الصغيرة ، جلست ارقب بطة جميلة طافية على سطح الماء ، باسما لها فى حنان بسبب ذلك الشعور المبهم باننى اعرفها ، وباننى القيت لها ذات يوم لقمة سميط فى جزيرة الشاى بالقاهرة فشكرتنى بقولها كاك .

فعندما يقترب الشتاء سوف تردد لحظة ثم لاتبرح ان تبسط جناحيها الصغيرتين المزركشتين وتطير عبر المانش تحلق لا اخذت فيزة ولا باسبور ، وعبر مزارع الكروم فى فرنسا ، عسى أن تقف لحظة لتستريح فوق طرطوفة برج ايفل . ووقفة اخرى فوق جبال الالب ، متلفتة حولها تبحث عن جزيرة الشاى . ثم عبر البحر الابيض فوق الاسطول السادس ، ارجو ان تسقط على كتف احد الكباتن علامة صغيرة ترقيه درجة .

اما حاليا فهى تصيف مثلى فى لندن ، وفى عينها السوداء

البراقة فى رأسها المنفبش الذى إلتوى نحوى رأيت نظرة تأكدت منها انها هى الاخرى قد عرفتنى وتريد ان تسالنى اين لقمة السميط . فهى بالطبع لاتعرف انْ هذه الاشياء غير موجودة فى لندن ، وأن هذا الترف الغذائى لايوجد فى غير اسواق القاهرة .

ولقد كنت لاجلس ساعة اناجيها لولا الظروف ، التى تدخلت لتقطع جلستى والتى اعتقد انك قد عرفتها من نفسك ، وهى ذلك الرذاذ الذى بدأ يتساقط معلنا أن السحب قد شربت من الماء اكثر من اللازم ! فنشرت المظلة فوق راسى وواصلت الجلوس فى عناد ، وتذكرت ما قرأته فى كتيب سياحى على أن الشاعر براوننج كان يقيم فى مكان ما على الترعة فلربما يكون قد جلس على هذه الدكة وناجى مثلى جدة لهذه البطة ، ثم قطع خواطره مطر كهذا المطر فملأ نفسه بالمرارة التى تفيض بها اكثر من قصيدة له انا شخصيا لو اقمت هنا عاما كاملا لانتهى امرى ككاتب فكاهة ، ولبدأت اكتب اشياء يتحول ازاءها شوبنهور نفسه الى كبير المتفائلين !

وهزت بطتى ذيلها وجدفت بساقيها بسرعة لتحتمى هنا او هناك من ذلك الاسهال السماوى . وبينما تبتعد التفتت وراءها نحوى وسمعتها تناديني ، قالت قابلنى بعد شهرين فى جزيرة الشاى . ولفتة ثانية الى الوراء لتقول لى وماتنساش السميط !

لماذا كان الانجليزى بارداً ؟

الامطار الوضيعة تنهمر على دماغى وليس معى مظلة ، وبينى وبين الفندق نحو مائتى متر يجب أن اقطعها على قدمى . بدأت بالطبع بمشية سريعة إلا انها وقور ، وابتسامة فلسفية توهم الآخرين بأننى اكبر من تلك الظواهر الطبيعية السخيفة . غير أننى مع بدء تساقط القطط والكلاب رأيت أن السير السريع يجب أن يتحول الى حنجلة ، تلك الحنجلة التى ما برحت بدورها أن تحولت إلى جرى صريح بكل قوتى وملعون أبو الوقار ! وبينما اجرى اسب والعن مستخدما كل ما عندى من الفاظ بذيئة اعرف أن احدا لن يفهم منها شيئاً .

لكن الجرى لم يمنعنى من الفلسفة ، اذ ومض فى ذهنى ذلك الخاطر الفلسفى عن السبب الذى من أجله كان الرجل الانجليزى ابرد من غيره بعض الشيء . وهذا السبب هو ان الرجل الانجليزى قد وجد لزاما عليه أن يختار بين أمرين : أما أن يكون باردا وأما ان يجن . فلو انه سمح لاعصابه بأن تثور كلما هطل المطر ، ولو انه راح مثلى يسب ويلعن فسوف تتحول حياته الى حالة من الردح المتواصل ، ولسوف تنعكس هذه الحالة العصبية على سلوكه العام بما يهدده بفقد كافة اصدقائه ، وربما انتهى الأمر بفصله من العمل وعودته الى البيت لكى يجد أن زوجته قد أخذت العيال وطفشت .

امسك اعصابك ياجورج ! اهدأ ياجون ! خليك بارد ياوليام هكذا يقول الرجل الانجليزى لنفسه طول الوقت ، جيلا بعد جيل وهو يجرى تحت تلك الامطار اللعينة حتى تحول التطبع الى طبع

ونشأ هذا الرجل الذى اضطر الى ان يكون باردا . ولذلك يقول الذين يعرفون الاستراليين انهم ليسوا باردين مثل اجدادهم الانجليز . ولاشك أن الانجليزى المعاصر لو سافر إلى استراليا وقضى بعض الوقت هناك لبدأ يتغير تدريجيا . مثل حلزونة صغيرة تشعر بحرارة الشمس فتمد رأسها وتخرج من قوقعتها . شيئا فشيئا يذيب الدفء ثلوج نفسه ويزيل جهامته ويجعله مرحا مثل القنفز الذى يتقافز حوله فى الشمس المشرقة .

وفى هذا الانهماك الفلسفى وانا اجرى نسيت ان اتخذ ذلك الاحتياط اللازم بما يناسب الموقف . وهو ان الف فى الجريدة رغيف العيش الذى كنت قد اشتريته لزوم الغداء . وهناك فى الفندق تبين لى اننى احمل بدلا من الرغيف كتلة من الدقيق المعجون بماء المطر . اكلة لاتصلح لكائن سوى البط او الفراخ . وللاسف لم يكن فى الفندق أرز . والا لاضفت بعضا منه الى الرغيف واكلته فتة !

فقر فى لندن !

على رصيف شارع اوكسفورد غير بعيد من محلات سلفردج « ٥٧ مليون جنيه » رايت لمة كبيرة فانحشرت فيها لاعرف سرها بين ميكروجوبين عاديين . وهناك رايت رجلا انجليزيا قد وضع على الارض صندوقا كبيرا مفتوحا . ومنه يخرج زجاجات عطر صغيرة ينادى عليها بما معناه :

- سلفردج بيبعها باتنين جنيه ! لكن انا موش ح اقول اتنين .. ولا حتى جنيه .. ولا نص جنيه .. ربع جنيه بس .. ربع جنيه القزازة يابلاش .. يالله ياجدعان مال الخواجة !

هذا الرجل دليل ناطق على ان الفقر مازال موجودا فى عاصمة الامبراطورية السابقة . فلو أن هذا الرجل لم يكن فقيرا فلماذا لم يفتح له محلا مثل سلفردج بدلا من أن يكتفى بمنافسته بهذه الطريقة البدائية ؟

ولهذا السبب - لانه فقير - تجمع حوله كل اولئك الناس وغابت فى الجيوب والحقائب عشرات الايدى تبحث عن ارباع الجنيه . من الذى لايخف الى نجدة هذا الرجل التعس الذى لايوجد ادنى شك فى أن أولاده على شفا الموت من سوء التغذية ان لم يكونوا قد ماتوا فعلاً ؟

فلو كان معى مايسمح لى بهذا الترف الخيرى لاشتريت منه زجاجة او اتنين ولا الحوجة لسلفردج . ولكن انى لى فى لندن بالعملة التى تسمح بشراء الكولونيا التى حتى فى القاهرة لا اشتريها إلا اذا تعدت حرارة الولد المريض ٤١ وشرطتين ؟

فاكتفيت بان اتنهد وانصرف . وعند محطة الاوتوبيس وقفت اتصفح الجريدة التى ايدت تلك الحكاية الخطيرة عن وجود الفقر فى بلاد الانجليز . فلقد اجرت احدى الهيئات بحثا فى احد اقاليم بريطانيا . ومنه تبين أن سبعين فى المائة من سكان ذلك الاقليم التعس يعيشون فى حالة فقر مدقع . فمعظم العائلات هناك - ياكبدى عليها - لاتربح اكثر من عشرة جنيهات فى الاسبوع الكامل !

خبر يحرق بالطبع نياط القلب . فإذا صح هذا الكلام فماذا اذن كانت فائدة كل تلك القرون من قتل الهنود والسود والبيض فى اربعة أركان الارض ؟ اهذه نهاية كل هذا التعب - أن بعض الاسرات البريطانية مازالت تربح فى الاسبوع مبلغا لايزيد على الذى تربحه اسرات البلاد المنهوبة فى الشهر وربما فى العام ؟؟

لا سن للياس

شيئان ينتشران فى شوارع لندن كالوباء . الحمام الذى لايجد من ياكله . والعجائز الانجليزيات اللواتى لايجدن من يلمهن فى البيت ! لايمكن لك ان تنعطف فى طريق إلا وترتطم بعجوز مقبلة من وراء الناصية . ولايمكن أن يخطر لك الجلوس

على دكة فى حديقة او شارع الا وتجد عجوزا قد سبقتك اليها
هى ترفض الاعتراف ـ العجوز الانجليزية ـ بأنها قد راحت عليها . تموت ولاتقول ياالله حسن الختام ! وهى فيما يبدو تلفق عشرات الاسباب التى تبرر خروجها من البيت ، مثل رغيف عيش تدعى انهم فى حاجة اليه ، زاعمة أن حفيدها لايستطيع أن ينوب عنها فى ذلك لانه ـ يإضنايا ـ قد يصاب فى هذا البرد بالزكام . فاذا تصادف أن كان البيت فى غير حاجة الى شىء فهناك كلبها الصغير الذى يجب أن تخرج به لكى تفسحه ، غير مكترثة بما يتساقط من رذاذ يهدد بأن يكون مطرا ، باسمة فى سعادة كلما اضطرت الى ان تتوقف ـ منقادة للعزيز ـ عند هذه الشجرة أو تلك .

وهى فى تلك المشاوير تحب ان تكون انيقة على طريقتها الخاصة ، وكافة ورود الحديقة رأيتها فى فستان واحدة منهن على خلفية من الحشيش الاخضر ، وعلى رأسها قبعة اشبه بسلة للفاكهة ، ومن السلة تنبعث ريشة سرقتها من ذيل طاووس .

وفى اخر الشارع زمجر صوت موتوسيكل هاجم نحوى كالوحش المجنون ، فوثبت على الرصيف وأنا ألعن جنون السرعة المسيطر على شباب اليوم . ثم اقترب الموتوسيكل منى ورأيت راكبة فاذا به لاشباب اليوم ولايحزنون ، بل هى عجوز بنت ستين او خمسين على الاقل !

وفى البارات يجلهسن ليشربن البيرة شوبا بعد شوب ، ضاحكات بأصوات خشنة عالية تطغى على اصوات الرجال . لم يسمعن فيما يبدو بتعبير ، سن اليأس ، الذى نطلقه نحن على الانثى حين تكف عن الحيض مصرات على الا يلقين عزرائيل بغير شىء من رغوة البيرة على شفاههن !

والعواجيز من الختاشير الانجليز لايقلون عن عجائز النساء

عنادا وتشبثا مستميتا فى الحياة ، وخذ على سبيل المثال ذلك الرجل الذى رأيته فى احد المشارب مقوس الظهر حتى ليوشك أن يلامس بانفه ركبتيه وعلى ساقيه المرتعدتين بشدة يحمل ما لايمكن ان يقل عن ثمانين عاما . سار نحو البار يتخلع وينتفض ، واكاد اسمع لعظامه صريرا ، وطلب من عاملة البار بصوته الاهتم شيئا لم تفهمه لاول وهلة ، فاستعادته عدة مرات قبل ان تدرك انه يطلب شفاطة .. فى استغراب نظرت اليه ثم قدمت له الشفاطة التى تناولها بيد ترتعد مثل ذراعه ومثل ساقيه . وبالشفاطة عاد يتخلع ويكركب متجها الى مائدة رأيت فوقها كوبا من البيرة لا أدرى ما الذى اوصله الى هناك ، ثم جلس الوغد وبيده المرتعشة راح ينشن بالشفاطة نحو الكوب حتى نجح فى ان يضعها فى الشراب . ثم مال الى الامام واطبق بشفتيه وهات ياشفط !

هى قطعا طريقة غير تقليدية لشرب البيرة ولكنها كانت الطريقة الوحيدة المتاحة له . فبتلك اليد المهزوزة ما كان الرجل ليظفر من كوب البيرة باكثر من جرعة صغيرة وباقى الكوب على هدومه !

آخر عناد وآخر اصرار على كل من الحياة والبيرة . ليس غير الموت وحده يستطيع أن يحدد اقامته وأن يحرمه من كوبه المحبوب ، فلو اشتد عليه المرض حتى الزمه الفراش فما اظنه يقلع عن الشراب ، وهناك فى السرير مرتعد عاجز اهتم ، ما اشك فى انه سوف يصرخ فيمن حوله مطالبا اياهم بزجاجة البيرة وبزازة !

انظر ... يمينك

من رأيي ان الرجل لايمكنه ان يقول - صادقا - انه قدفهم مدينة لندن حق الفهم ، مالم يكن قد شرع من تلقاء نفسه في الالتفات جهة اليمين كلما هم بعبور الطريق ، ذلك الرأى الذى اذا سلمنا بصحته فيبدو انني ساغادر لندن وكأننا يابدر لارحنا ولاجينا ! إذ هممت منذ قليل بالنزول عن الرصيف فرأيت على ارض الطريق كلمات كبيرة بالخط العريض الابيض تقول لى انظر يمينك فنظرت الى يمينى لكى ارى اجمل ساقين تبرزان في اجرأ صورة من اقصر ميكروجوب ، الامر الذى جعلنى أشعر بالاعجاب الشديد ببلدية لندن التى امكنها ان تنبهنى الى المنظر بهذا التوقيت الدقيق ، ومواصلا نظرتى اليمينية نزلت عن الرصيف لكى اسمع فرملة حادة لسيارة مقبلة ، فقفزت الى الخلف وقد تذكرت فجأة أن البلدية لم يكن عندها اية فكرة عن ذلك الميكروجوب عندما امرتنى بأن انظر الى يمينى ، وانما كانت تعرف ان سائحا مغفلا مثلى سوف يحاول عبور الطريق من هذه النقطة ، ناسيا ان السيارات في لندن - على عكس السيارات في البلد التى وفد منها ايا كانت - تسير على يسار الطريق لا على يمينه .

زغرة حادة من السائق قابلتها بالذلة المناسبة لجلافتى ، ثم سرت فى حال من الغيظ المتزايد من اولئك الناس يصرون - بخلاف العالم اجمع - على أن يسيروا على الشمال . فلماذا بحق الشيطان يفعلون ذلك ؟ هل يريدون أن يثبتوا للناس - مثلا - انهم من طينة نفيسة خاصة ، وأن شيئا فى الحضارة

البريطانية قد نجح فى تخليصهم من تلك العادة التى توشك أن تكون غريزية فى الجنس البشرى - عادة السير على اليمين !!

مستبعد طبعا أن يكون هذا هو السبب ، ومن السخف أن احسم الامر بقولى بأن عقلهم مركب شمال . ولذلك انتهزت فرصة وجودى فى احد التاكسيات والقيت بالسؤال الى السائق الذى يحتمل ان يكون عنده الجواب ، فتنحنح الرجل وشرع فى الاجابة بلهجة تدل على انه قد سمع ذلك السؤال وسمعه حتى سئمه الى درجة الموت . وكانت اجابته مكونة من مجموعة فريدة حقا من حروف الراء والسين تساندها حروف أخرى ، غير انها للاسف لاتحتوى على اى كلمة من الكلمات التى مرت على فى اى من الكتب الانجليزية التى قرأتها . فشكرته متظاهرا بالفهم وغادرت التاكسى وأنا اشد جهلا بالسبب الذى من اجله يسيرون على اليمين ، دعك من السبب فى ان الانجليز لايعرفون الانجليزية .

وفرملة شديدة اخرى وانا اهم بعبور الطريق ، فوالله ما اعرف كيف اتيح لى ان اجتاز هذين الشهرين دون أن أدهس ، فربما كان الامر راجعا الى ذلك السبب البسيط : أن أزمة زيت الفرامل القاهرية لم تصل بعد الى لندن !

الكنيسة الخالية

تعبت من السير فجلست على أول دكة صادفتنى ، ومرة أخرى شكرت لندن على اهتمامها براحة الناس ممثلة هنا فى تلك الدكك المنتشرة فى شوارع البلد ولاسيما فى ضواحيها . وكانت الدكة بالمصادفة غير بعيدة من باب كنيسة ، وبالمصادفة ايضا كان الوقت صباح يوم الاحد ، تلك المصادفات التى رحبت بها على أمل ان اتفرج على مواكب الاتقياء الداخلين الى الكنيسة او الخارجين منها ، خاصة وانه لا مفر من ان يكون بينهم عدد من التقيات اللواتى يسرنى ان اقيس - بالنظر طبعا - اطوال فساتينهن لكى

أخذ فكرة صحيحة عن العلاقة بين طول فستان البنت وبين درجة تقواها ، وعن الوضع الحقيقى للميني والميكروجوب فى فلسفة الكنيسة البريطانية الحديثة .

لكننى للأسف لم ار اى شىء . نصف ساعة كامل مضى هناك وما من تقى دخل الكنيسة أو تقية خرجت منها . كأن هذه الكنيسة ليست كنيسة وكأن اليوم ليس يوم أحد . وقسيس ضئيل الجسم برز عند الباب وراح يتلفت حوله ، أحمر الوجه وديع السمات وفى نظراته معنى من الشعور بالاحباط . هنا وهناك يتلفت حتى استقر بصره على ، ومدى لحظة خيل الى اننى رأيت فى عينيه نظرة مناشدة . فخطر لى ان اجبر بخاطره وانهض للصلاة ، لكننى تذكرت اننى سوف أخطىء لامحالة فى أداء الطقوس ، فيكتشف الرجل امرى ويظن اننى ارمى الى السخرية منه ، وأكون بذلك قد اسأت اليه وأنا الذى مارميت الا الى الاحسان . فاشحت بوجهى وتشاغلت عنه بالتطلع الى السماء ، والشىء الوحيد الذى وجدته هناك هو كتلة ضخمة من السحب الرمادية المنذرة بالمطر .

فنهضت وابتعدت وأنا ارثى لذلك القسيس المسكين ، متذكرا ماقرأته ذات يوم من أن احد القساوسة قد الحق بكنيسته فرقة من موسيقى الجاز على امل ان تغرى الشباب بالحضور الى الكنيسة حيث يجمعون بين متعتى الصلاة والرقص . تلك التجربة التى اميل الى الظن بأنها قد فشلت بسبب مالابد ان الشباب قد عانوه من الحرج وهم يرقصون تحت تمثال المسيح المصلوب .

فلاشك انها محنة يعانيها رجال الدين فى انجلترا القرن العشرين ، حيث زال آخر أثر للابرار والمتطهرين الذين كانوا يقتلون الرجل بسبب أصغر شبهة توحى بانه ليس متطهرا مثلهم . فاذا استمرت الامور تسير فى هذا الاتجاه فلن استبعد ان يأتى يوم تحدو فيه الكنيسة الانجليزية حذو سائر المؤسسات هناك ، وذلك بأن تقفل ابوابها فى ايام الاحد !

انثى مختلفة

عينان خضراوان مثل معظم عيون الاناث فى لندن ، فى وجه ابيض وسط شعر اصفر مثل معظم الوجوه والشعور هناك ، ومع ذلك خيل الى اننى ارى فيهما شيئا مختلفا عما ارى فى عيون سائر الاناث . فهذه الانثى على غير المألوف رقيقة النظرات عذبتها ، تنظر الى الدنيا بدون ان تزغر لها ، ولمسة خفيفة من التهيب لما حولها من الناس فى عربة المترو .

فاذا التفتت هنا أو هناك فهى تلتفت ببطء واناة ، لحظة عابرة يستقر بصرها على الشىء ثم يرتد عنه بسرعة ، شاعرة لسبب ما انه ليس من حقها اطالة النظر الى الاشياء . اذا افترضنا ان لها حق النظر اصلا . اذا كانت انجليزية او اوروبية عموما فلابد أنها قد واجهت فى طفولتها قدرا اكبر من المألوف من الكبت ، الأمر الذى يوحى بأن اباها او امها - او كليهما - من غلاة المحافظين أو حتى من المتطهرين .

وبدأ القطار يهدىء من سرعته ونهض من الناس من ينوى النزول فى المحطة التالية ، وبينهم شاب اسمر شرقى السمات مد يدا ربت بها على كتف الفتاة لينبهها الى ضرورة النهوض قائلا بالعربية .

القط والجرس

صوت رنين خافت لجرس صغير يشخلل فى الحديقة الخلفية للفندق وهو لسبب مايصل الى اذنى من جهات مختلفة ، مرة من هنا ومرة من هناك . فنهضت ونظرت من النافذة حيث رأيت قطا - او قطة لا أدرى - يتقافز فى الحديقة كعادة القطط مطاردا شيئا ما . ومن تنقل صوت الجرس مع حركة القط بدا انه مرتبط به بطريقة ما ، الامر الذى ثبت لى عندما تبينت بتدقيق النظر أن هناك جرسا صغيرا يتدلى من عنقه ويشخلل معه كلما نط هنا أو هناك .

وبسؤال البنت التى تأتى لتنظيف الحجرة عن الغرض من ذلك الجرس قالت انه يرجع الى مشاعر الرحمة التى يزخر بها صدر صاحبة البيت ، اذ كرهت أن تتعرض عصافير الحديقة للخطر من قطها فركبت فى عنقه ذلك الجرس الذى ينبه العصافير وسائر الكائنات اللطيفة الى ذلك الخطر المقترب . واما من ناحية القط فهو ليس محتاجا الى أكل العصافير بسبب ما يشهد به شحمه الكثير على وفرة ما يعطى له من ألوان الغذاء داخل البيت .

كلام معقول وعاطفة تشكر عليها تلك السيدة قطعا ، وان كنت اعتقد أن الحاجة تدعو بشدة الى تعليق جرس آخر فى عنق كائن آخر هو العنق الشخصى للسيدة ! فبمثل هذا الجرس كانت تفكر مرتين قبل أن تتسلل الى الحجرة لكى تضع بعض الماء بدلا من الجرعة التى نالتها من زجاجة الويسكى التى اهدانى اياها أحد الاصدقاء لزوم الدفء فى العاصمة الباردة !

يوم الحشر فى بيروت

لافرق فى بيروت بين أن يكون عندك كاديلاك او فورد أو فيات ، فليس ثمة فرق بين السيارات مادامت كلها واقفة ، هى تمشى ـ سيارات بيروت ـ مترا وتقف ، ثم مترا آخر وتقف ، وهكذا طول الوقت فى حال من الزحام الذى لا اذكر اننى عانيته قبل ذلك فى غير الكوابيس !

وعسكرى المرور واقف وسط كل هذا الزحام ينفخ فى صفارته بدون اى مناسبة واضحة ، فليس غير النفخ فى الصور يكفى لحل تلك الإزمة المرورية التى هى صورة مصغرة ليوم الحشر ! ..

لذلك ما تكاد احدى السيارات تفلت هنا أو هناك من عنق الزجاجة المسدود حتى تندفع كالصاروخ الموجه احيانا ، وغير الموجه دائما . فرحة السائق بالخلاص تجعله أشبه بحيوان فتح له باب القفص بعد حبس طويل ، فانطلق يجرى بغير ما هدف سوى أن يجرى ويجرى

ولعل هذا هو السبب فى كثرة السيارات فى بيروت ، أن صاحب السيارة لايبرح أن يزهق منها فيبيعها بأى ثمن لمجرد أن يتخلص منها ! والمالك الجديد للسيارة يصنع بها نفس الشيء ، ولعله لايجد لها مشتريا فيتركها هنا او هناك ويعود الى بيته ماشيا !

فلو اننى اشرع القوانين فى بيروت لاضفت الى العقوبات التقليدية هذه العقوبة البيروتية الجديدة ! . قيادة السيارة من الواحدة الى الثالثة بعد ظهر كل يوم !

ويبدو أن « الحشر » سمة عامة للحياة فى بيروت ، وخذ على سبيل المثال هذه القصة !

استأجر رجل شقة ذات بلكونة تطل على قطعة من الارض الفضاء . وفي ذات يوم رأى عددا من الفنيين والعمال يقيسون تلك الارض ويعدون العدة لبنائها . وبدأ البناء يرتفع شيئا فشيئا . وفوجيء الرجل بحائط من الاسمنت المسلح يسد المنظر امام بلكونته . لا على بعد متر أو اثنين وانما على بعد سنتيمتر واحد من بلكونته !

فوالله لو عندي وقت لكتبت عن موقف ذلك الساكن قصة من نوع قصص كافكا . احاول فيها أن اعبر عن شعور انسان معاصر وهو يرى بلكونته - في خليط من الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية - تتحول من بلكونة الى حجرة !

شيء كهذا لو حكي لى لما صدقته . وكان لزاما على ان احضر الى بيروت لكي آخذ هذه الفكرة عن يوم الحشر !

رجل محشور

ويبدو ان واحدا في بيروت لا يعترض على هذا الحشر . بل ان الجميع يرونه شيئا طبيعيا وسنة عادية للحياة . ففي سيارة « المرسيدس » - التى هى تاكسى بالنفر - جلس بجانبي في المقعد الخلفي رجل ما . وصديق له جلس في المقعد الامامي . وكلنا محشورون في تلك السيارة المرسيدس المحشورة بين سائر السيارات في الشارع الضيق

وراح الرجلان يتحادثان بصوت مرتفع . ومن كلامهما فهمت انهما يفكران في شراء دكان يملكه شخص ثالث . لا لانه يريد ان يبيعه وانما لانه مضطر لان يبيعه . اما لماذا هو مضطر لان يبيعه فهذا ما فسره احد المتحادثين بقول للآخر :

- انه « محشور » في الفين ليرة !

وبما انه محشور في ذلك المبلغ فأي شيء اسهل من ان يحشرا نفسهما في الموقف ويتقدما لشراء الدكان منه بالثمن الذى يناسب رجلا محشورا !

وهذه الظاهرة ليست غريبة في اى مجتمع يقوم على البيع والشراء . وانما الغريب هو ان يتبادل الرجلان تلك القصة بذلك الصوت المرتفع وبهذه الصراحة التامة أمام سائر الاغراب الموجودين في السيارة . فهي بهذه الصورة فلسفة عامة لا اعتراض لاحد عليها . انه طالما وجد اناس ينحشرون فاكرام المحشور دفنه !

ومدينة محشورة

وذلك ان بيروت نفسها محشورة بين البحر والجبل . كل زيادة في سكانها يجب أن تستوعبها فى داخلها دون اى قدرة على التمدد والانتشار . ولذلك بدأت المدينة « ترتفع » بدلا من ان تتسع . والاف الانوار تتلألأ في الليل من فوق الجبل . انوار الناس الذين اتاحت لهم ظروفهم الاقتصادية أن يرتفعوا . هناك يتاح لهم - الاقلية السعيدة - ان يتنفسوا الهواء الطلق . ناظرين فى رثاء او شماتة او مزيج من الاثنين الى الاف التعساء المحشورين فى المدينة الواطئة

على شاطيء البحر

وحيث انني محشور مثل صاحبنا الذى سيبيع دكانه . فقد كان لزاما على أن انحشر في ذلك الفندق الرخيص في وسط البلد . ولذلك فلن تجدنى فيه الا ساعة النوم . حيث ارتمى كالقتيل وسط احلام مزعجة عن الاف السيارات التى تحاصرنى وتريد ان تدهسنى . وعن جدار من الاسمنت المسلح يرتفع امام نافذتى ويحجب عنى النور والهواء

اما بالنهار فانا على شاطيء البحر . سائر على القدمين او جالس في هذا الكازينو او ذاك . والبحر هنا شديد الجمال . فمتى كان البحر في اى مكان غير شديد الجمال ؟ وهو فى نظرى - البحر وبرغم حركته التى لاتهدأ - عنصر الثبات الوحيد فى هذه الدنيا . فالبحر هو البحر فى كل مكان . دائما ازرق

اللون او اخضرلا ، ودائما تتكسر امواجه بنفس الطريقة على الصخور المغطاة بالطحالب او تتغرس على رمال الشاطىء الصفراء . صحيح ان فى جوفه حروبا كثيرة ومآس فاجعة بين الاف الانواع من الكائنات ، ولكنك لاترى اى شىء من ذلك حين تنظر الى سطحه الازرق الهادى

هنا فقط أشعر بأننى غير محشور ويااليت عندى من المال مايسمح لى بأن اقيم الى الابد فى احد هذه الفنادق العملاقة التى تؤجر على كل نظرة الى البحر بليرة ! ولما كان الامر ليس كذلك ، ولما كان موعد قيام الطائرة قد حان فارجوك ان تاذن لى بالتوجه الى المطار لكى انحشر فى الطائرة التى ستحملنى اخر الامر الى القاهرة .. هل سمعتك تقول لى حمدالله على السلامة ؟

فهرس